الإسلام والدولة

الشيخ النيل عبدالقادر أبو قرون

الفهرس

مُفتَتَح	7
الإيمان بالرسول	11
دين الإسلام أم دين المسلمين ؟	29
دعوة الرسول	39
دولة أم دعوة ؟	47
ما هو حكم الله ؟	53
مرجعية دينية لا حكم سياسي !	73
إطاعة أولي الأمر !	79
دولة من أجل الدين أم دين من أجل الدولة ؟	89
سُنَّة الخلفاء الراشدين !	97
القرآن والسلطان !	113
دولة مدنية أم دينية ؟	127
من هم الَّذِينَ اَمَنُواْ ؟	131

مُفتتَح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أَرسَلَ محمداً صلى الله وبارك عليه وآله خاتماً لأنبيائه ، وأيَّده بالمُعجزات ، ولم يُرسله بها لأنه قد كذَّبَت بها الأُمم السابقات ؛ قال تعالى ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾[1] فكانت رسالته خاتمةً شاملةً مُهَيمنةً على ما سَبَقَها من الرسالات ، ومؤيِّدةً لا لاغيةً لمن سَبَقَه من المرسلين وكتبِهم من الزبور والإنجيل والتوراة .

أحمَده على أن جعلنا من أُمَّته ، ونسأله التوفيق للقيام بما أمَرَنا به . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مُعين ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[2] ، وصلى الله وبارك على من لا نبي بعده في العالمين الذي كان يصلي عليه الله نبياً وآدم بين الماء والطين ، وجعل الصلاة عليه ذكر الملائكة أجمعين ، وأمر الذين

---

(١) سورة الإسراء : ٥٩ .

(٢) سورة الصف : ٩ .

آمنوا بها ليكونوا من الصالحين وصلى الله وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ، ورضي الله عن صحابته المُنتَجَبين .

ما قَصَدتُ بهذا الذي أنا بِصدده الطعن في مذهب أو مُعتَقَد ، ولا أن أحمل إنساناً على فِكرٍ لَدَيَّ مُعتَمَد ، فحُرِّيّة الفِكر والاعتقاد قد أمَر بها ربُّ العباد ، وخَتم بها الرسالات إلى يوم التناد . قال تعالى : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[1] لكلّ العباد ، وقال عزّ من قائل : ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[2] وأكَّد سبحانه وتعالى في محكم تنزيله بأنّه ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[3] . فمَنَع الإجبار عليه في العالمين ، وحُكمُه تعالى باق إلى يوم الدين .

كلّ ما هناك أن الذي رأيته خشيت أن يوقع أحداً في مخالفة للقرآن العظيم والتهلُكة في المآل ، ورأيت تدوينه حتى يكون عرضٍ حال لمن يشاركني الحال ، فيُشَمِّر لخوض المجال ، عسى أن نكون وإياه داخلين في رحمة ذي الجلال ، مع الذين أنعَمَ الله عليهم من الصالحين من النساء والرجال ، ويعصمنا من الزيغ والخِزي والضلال ، إنّه الرَّحيمُ السَّميعُ المُجيبُ السؤال .

في هذا المؤلَّف وما حوى أردت أن أتناول بِتَمحيصٍ

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

(٢) سورة يونس : ٩٩ .

(٣) سورة البقرة : ٢٥٦ .

وتَدقيقِ بَعض ما جاء في مصادِرنا الأساسية ، منتهجاً في سَعيِي هذا ميزاناً أساسه القرآن العظيم وعِصمة النبي صلى الله وبارك عليه وآله ، مُلقياً الضوء على بعض الموروث لتحريك هذا الركود المصنوع . وهي دعوة علمية تناقش في حوارٍ هادئ – لا تُهمَة فيه لأحد – ما يظُنّه البعضُ مُسَلَّمات لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . وأبرأُ في هذا مِن كُل قصد سيء أو جَدَلٍ باطل لدحض الحق . كما وأني أَقبَل المُراجَعةَ والمُفاكرة ، والالتِقاءَ بِمَحَبَّة والاختلافَ باحترام .

الإيمان بالرسول

أمَر الله سبحانه الذين آمنوا بالارتقاء بالتقوى ليؤمنوا برسوله ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾[1] ، فالإيمان بالرسول محمد صلى الله وبارك عليه وآله هو مَطلَب الحق من الذين آمنوا ، فنسأله تعالى أن يجعلنا من المتقين وبرسوله من المؤمنين وأن يرفع إيماننا به إلى اليقين ، ويجعلنا لرسوله من القانتين ، ليؤتينا أجرنا مرتين قال تعالى : ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾[2] وألا يجعلنا مع الذين يجنحون ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾[3] .

جاء في حديث لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه «ليس حفظ

---

(١) سورة الحديد : ٢٨ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣١ .

(٣) سورة النور : ٤٧ .

القرآن بحفظ حروفه»[1] وفي ضوء هذا فيكون الذي يحفظ القرآن وهو مُستَمسكٌ بما يُعارضه من قول الرجال ليس بحافظٍ له بأيّ حال ، وهو إمّا أن يكون «كالحمار يحمل أسفاراً» وإمّا أن يكون من الذين ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾[2] وإما أن يكون من الذين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾[3] .

قال تعالى : ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4] وقال عزّ من قائل : ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[5] . هكذا أمر الله سبحانه أن يكون أسلوب الدعوة إلى الله تعالى . وجاءت بعض الأحاديث النبوية على تبيان هذا النهج القرآني ، فقال صلى الله وبارك عليه وآله «حَبِّبوا الله عز وجل إلى الناس وحَبِّبوا الناس إلى الله يُحبِبكم الله»[6] وقال صلى الله وبارك عليه وآله «يسّروا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا» . ونهى سبحانه عن إكراه الناس في الدين بل أعطاهم الحرية الكاملة لإرادتهم

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة .

(٢) سورة الفرقان : ٣٠ .

(٣) سورة لقمان : ٢١ .

(٤) سورة النحل : ١٢٥ .

(٥) سورة العنكبوت : ٤٦ .

(٦) حلية الأولياء .

فإن أرادوا أن يكفروا أو أرادوا أن يؤمنوا فذلك متروك لهم ، لا يُكره أحد من الناس على اعتناق الدين ؛ لأنّ مَن يُكره على شيء فهو كارهٌ له ، وذلك يقود للنفاق الذي هو أسوأ من الكفر ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[1] وليس الدين الذي أنزله الله على عباده بذلك الشيء البغيض المكروه حتى يُجبَر الإنسان عليه أو يُقاتَل ويراق دمه إن لم يعتنقه ويستباح ماله وعرضه ، إنما هو لرقي الإنسان وليتم له صالح الأخلاق ؛ ولهذا كانت بعثة النبي صلى الله وبارك عليه وآله فقد جاء عنه «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[2] فلا مجال فيها للاعتداء على الحريات قال تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[3] . ولكن نجد هذا النهج الربّاني يصطدم بحديث ينسبونه لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله وهو «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَم ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّه»[4]!!! فهل يُمكننا تصديق من يقول لنَا إنّ النبي المعصوم صلى الله وبارك عليه وآله يقول أو يفعل ما يُعارِض ما أُنزِل إليه من ربه ، أو

---

(١) سورة النساء : ١٤٥ .

(٢) مسند أحمد .

(٣) سورة البقرة : ١٩٠ .

(٤) صحيح البخاري .

يتَّخذ نهجاً غير الذي أُرسِل به؟ وهل قاتَلَ النبي صلى الله وبارك عليه وآله الناس لإجبارهم على الدخول في الإسلام؟

وهل جاء النبي صلى الله وبارك عليه وآله برسالة يستبيح بها دماء كلّ الناس وأموالهم إلا أن يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ أهكذا الرحمة المُهداة؟ بل هل توجد حادثة واحدة أجبَرَ فيها النبي صلى الله وبارك عليه وآله أحَدا من الناس على أن يشهد أن لا إله إلا الله وأنّه رسول الله؟ وهل يَصِح أن يُنسَب إليه حديث «جُعِل رزقي تحت رمحي»[1] وهو القائل «إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني[2]»؟ وقال تعالى ﴿ . . . لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾[3] .

فقد فتح النبي صلى الله وبارك عليه وآله مكة فلِمَ قال لهم : «اذهبوا فأنتم الطلقاء» بدلاً من أن يأمرهم أن يقولوا لا إله إلا الله؟ فإن كان أُمر بأن يقاتل الناس على الشهادتين كما جاء في الحديث المزعوم فكيف لا يمتثل لأمر الله وهو رسوله الأمين الذي لا ينطق عن الهوى؟

وما يؤكد عدم وجود أمر له بغير ما فعل ، مَنحُهُم الحرية وإطلاقُ سراحهم بكل كرامة ، تماشياً مع إرساء قواعد الإسلام وطاعة لربه العظيم الذي بين بوضوح لا لبس فيه أن الحرية

---

(١) تهذيب الكمال .

(٢) صحيح مسلم .

(٣) سورة طه : ١٣٢ .

مصونة في الإيمان أو الكفر ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] ، وأنه لا إكـراه أبداً على الإيمان ، فـمِن أين جـاء المحـدثون بتلك الأحاديث التي تناقض النص الصريح للقرآن ، وإذا افترضنا أنّ نِسبة الحديثِ لرسولِ الله صلى الله وبارك عليه وآله صحيحة ، كما يدَّعون ، فلماذا تبرأ إذن من فعل خالد بن الوليد حينما قتل مشركين يوم فتح مكة؟ فالحديث المنسوب يقول إنّ من لم يشهد أن لا إله إلا الله يُهدر دمه ويؤخذ ماله ، وخالد قَتَل مَن لم يقُل لا إله إلا الله ولم يأخذ أموالهم ، وقد تبرأ النبي صلى الله وبارك عليه وآله بشدة من فعلته بقوله : «اللهم إنّي أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»[2] فالأمر الإلهي لرسوله الكريم صلى الله وبارك عليه وآله جليّ ، هو أن لا يُكره الناس على الإسلام ، وأن يَدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، فكيف يُقال إنّ الله أمره بالقتال لنشر الإسلام؟

ولماذا الهياج والصراخ والاعتراض على (البابا)[3] في قوله إن الإسلام انتشر بحدّ السيف إذا كانوا يعتقدون حقاً في الحديث الذي نسبوه لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ؟

إنّ هذا الحديث لَم يُنسَب لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله إلاّ لإيجاد مبررات لتسمية الاستعمار العربي الذي تمّ

---

(١) سورة الكافرون : ٦ .

(٢) صحيح البخاري .

(٣) البابا بنيديكت السادس عشر .

للشعوب الأخرى بـ«الفتوحات الإسلامية» ، ولذلك سَمُّوا المواقع التي كان رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله يدافع فيها عن المدينة «غزوات» . فمعركة بدر التي كانت داخل حدود المدينة فُرضت على المسلمين فرضاً ، ولم يخرج الرسول صلى الله وبارك عليه وآله من المدينة ليُقاتل قريشاً لِفَرض الإسلام عليهم . بل مِن أجلِ اعتراضِ عير قُريش ، التي كانت قادمة من الشام ، بِقَصدِ استرداد أموال المُسلمين التي أخذها المُشركون في مكة بعد إخراج المُسلمين مِن ديارهم . وبعد أن نَجَت العير مِن الاعتراض قرّر المُشركون مُهاجمة المُسلمين في ديارهم حتى يأمَنوا شَرّهم ويستأصِلوا شأفَتهُم ، فجاءوا غُزاة من مكة إلى أن نزلوا بِبَدر ، فكان لابُدّ مِن مُلاقاتهم ، وهكذا فُرِضَت المعركة على المُسلمين ولم يكن ثمة مناص من ملاقاة المشركين ﴿ . . . وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾[1] ، فكيف أصبح المؤرخون المسلمون ومن تبعهم إلى اليوم يسمونها أولى غزوات الرسول صلى الله وبارك عليه وآله . .؟!

أما معركة أُحُد التي جاء فيها المشركون إلى المدينة بجيشهم فهي أيضاً من وجهة نظرهم غزوة ، ومن يعرف أبسط المعلومات الجغرافية عن موقعي أُحُد وبدر يدرك كم كانا قريبين من المدينة ، وأن المشركين هم الغزاة وليس الرسول وأصحابه : إذ كان موقفهم العسكري دفاعياً ، وهذا ما حدث أيضا في ما

(١) سورة الأنفال : ٧ .

يسمّى بغزوة الأحزاب الذين جاءوا إلى المدينة بجيوشهم ، فما كان من المسلمين وعلى رأسهم رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله إلا أن حفروا خندقاً حول المدينة للدفاع عنها !!

ومن الواضح في كل ما سبق أن رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله لم يكن هو الغازي في هذه المعارك ، ولم يقاتل أحداً لفرض الإسلام ، ولم يعتد ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1] .

ولعل النتيجة التي يمكن أن يخلص إليها مَن يقرأ الحديث الآنف الذكر «أمرت أن أقاتل الناس» ويعتقد فيه – ونعوذ بالله من ذلك – ما يلي :

أولاً : إنّ الرسول المعصوم صلى الله وبارك عليه وآله يقول ويفعل ما يناقض قول الله وما يأمره به في القرآن العظيم .

ثانياً : كان انتشار الإسلام بحدّ السيف – وليصمت الذين يدْعون إلى الإسلام بالعقل والمنطق وحُسن الخُلُق ، والموعظة الحسنة .

ثالثاً : إن الرحمة قد انتفت عن نبي الرحمة صلى الله وبارك عليه وآله فلم يجد متسعاً لإيصال رسالته إلى الناس بغير السيف .

رابعاً : كلمة «الناس» في الحديث جاءت على إطلاقها وكأنّ رسول الهداية جاء مقاتلاً للناس لا داعياً ومبَشِّراً ونوراً .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٠ .

ومن خصائص الرسالة العالمية الخاتمة والمُستمرّة ألا تُكرِّس للعداءات والمرارات والدماء ؛ لذا فإنّي لا أرى إمكان نسبة هذا الحديث إلى النبي صلى الله وبارك عليه وآله ، وردُّه واجبٌ على كل مسلم يؤمن بالله ورسولِه وكتابه وعصمة نبيه الذي كان «خلقه القرآن»[1] .

لقد جاءت المصادر التي وجدنا عليها آباءنا مُحَمّلة بما لو قبلناه كله لا يكون الدين إلا قبول التناقض ، فقد صَحِبَ هذه المصادر كَمٌّ هائل مِن الترهيب والتخويف مِن أن يُمَسّ هذا الموروث بنقد ، مهما بلغ النقد من الصحة ولو كان يرتكز على ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه! وصار الإرهاب الفكري من المستحسنات ، ويرون المدح في مقولة : «لا يُفتى ومالك بالمدينة» على الرغم مما فيها من الإرهاب الفكري وفرض المذهب على الناس ، ورغم أن صاحب هذا المذهب هو الذي كان يجلس على كرسيِّه في مسجد النبي ويشير إلى النبي في مقامه واصفاً له بأنه «صاحب هذا القبر»[2] ، كأن نِسبة النبي صلى الله وبارك عليه وآله إلى ذلك القبر أفضل من كونه نبياً ورسولاً يُصلي عليه الله وملائكته ، فيُعَرِّف رسول الله بالقبر!! وكذلك هو القائل أفضل الناس أبوبكر وعمر وعثمان ،

---

(١) مسند أحمد .

(٢) كشف الخفاء والسلسلة الصحيحة .

ثم قال «ههنا وقف الناس»[1] مُعَرِّضاً بعلي بن أبي طالب عليه السلام وقائلاً : «وليس مَن طَلَبَ الأمر كَمَن لا يطلُبه»[2] – بينما علي عليه السلام لم يطلُب الأمر – الحُكم – بَل رَفَضَ أن يُبايِعَه الناسُ بعد مَقتل عثمان حتى أصَرُّوا عليه ، فأبى إلا أن تكون البيعة في المسجد[3] . وأصبح التِزامُ أكثَرِ المسلمين وتمسُّكهم بالموروث من المصادر والمذاهب ، غير قابلين للحياد عنه ، ولو جئتهم بآية من كتاب الله فيقولون عنك «قُرآني» كأنما هذه الصفة سُبَّة ، تُصَنَّف بها ثم يُرفَض القبول منك ، ويقولون : «هذا نهج السَلَف . . . هذا ما وجدنا عليه آباءنا» فيَصْدُق عليهم قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾[4] وأصبح التقديس للسَلَف هو التَدَيُّن ، بل هو الدين عند أكثر المسلمين – كأنّ الله سبحانه اقتَصَرَ فَضلَه عليهم ولم يبق له من الفضل شيء لمن يأتي مِن بعدهم! فأفتوا بقفل باب الاجتهاد وقيَّدوا فضل الله

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك .

(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك .

(٣) جاء في تاريخ ابن خلدون : «لما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والانصار وأتوا عليا يبايعونه فأبى وقال أكون وزيرا لكم خير من أن أكون أميرا ومن اخترتم رضيته فألحوا عليه وقالوا لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك حتى غلبوه في ذلك فخرج إلى المسجد وبايعوه» .

(٤) سورة البقرة : ١٧٠ .

الواسع ، وحرَّموا الطعن في الموروث الذي أصبح هو المرجعية رغم ما يحمل من التناقضات التي لا يمكن تجاوزها بحال! وأنشأوا منهجاً للدين بُمسلّمات لا تقبل حتى المناقشة العلمية ، وأسَّسوا فِقهاً لِسَد الذرائع ، ما أنزَل الله به من سلطان ، أقصوا فيه الآخر وألغوا فيه العقل ، وحجروا فيه الفيض الإلهي وحركة الحياة ودورة التاريخ بِقَفلِ بابِ الاجتهاد .

جاء في صحيح البخاري في باب «رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت» أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر : «إنّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحقِّ ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل الله آية الرجم ، فقرأناها وعقلناها ووعيناها . . فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائلٌ : والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله . . .»[1] وهأنذا أقول والله لا أجد آية الرجم في كتاب الله طال علينا الزمن أو قصر . ويستمر حديث البخاري فيما ينسبه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه (إنا كُنّا نقرأ فيما نقرأ مِن كتاب الله «أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كُفرٌ بِكم أن ترغبوا عن آبائكم – أو إن كُفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم») فهناك شك في هذه الإضافة نفسها المُشكّكة في كتاب الله!!! ولا يقولن أحد بأن هذه من الآيات المنسوخة لأنه إذا كانت كذلك فلِمَ ذكَرها عمر؟ فإنّ الله سبحانه إذا نسخ آية جاء بخير منها أو مثلها ،

(١) صحيح البخاري – باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت .

فهل لم يجد هذا البديل الأحسن؟ قال تعالى ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[1] .

على الرغم من أني أرى أنه لا يوجد نسخ في آيات القرآن ، تعالى الله أن يغير ويبدل فيما أنزل لأنّ ذلك قد يعني أن ما نسخ أصبح لا يلائم الوقت وذلك لا يكون إلا عن تفكير ، وتعالى الله عن العقل والتفكير فهو الفعّال لما يريد عن علم مسبق . فالآيات التي محل النسخ والنسيان هي الآيات الكونية التي أُرسل بها الرسل السابقون كسفينة نوح عليه السلام ، وآيات موسى عليه السلام التسع لبني إسرائيل ، وإنزال المائدة لعيسى عليه السلام ، والناقة لصالح عليه السلام . على الرغم من أن محمداً صلى الله وبارك عليه وآله قد خُصّ بأعظم من تلك الآيات إلا أنه لم يُرسل بها ولم يحتج بالآيات الكونية التي خُص بها على صحة رسالته فقد شُقَّ له القمر ورُدَّت له الشمس وكَلَّمَه البعير وسَجَدَ له ، وكَلَّمَه الحَجَر وكَلَّمَه الجِنّ ، وسَعَت إليه الشجيرات ونَبَع الماء من يديه وأَشبَعَ الجيشَ بِصاعٍ شعير . . . الخ ، ولا تُحصى معجزات من كان يرى من خلفه كما يرى من أمامه صلى الله وبارك عليه وآله وليس هذا مجال إحصائها . وعلى الرغم من ذلك لم يرسل بهذه الآيات والمعجزات قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾[2] فقد أوتي صلى الله وبارك عليه وآله

(١) سورة البقرة : ١٠٦ .

(٢) سورة الإسراء : ٥٩ .

كـمـا قـال مـا لم يؤت أحـد قـبله ؛ جـوامع الكلم ، وجعلت له الأرض مـسـجـداً ، ونصـر بالرعب ، وأعطي الشـفـاعـة ، فكان كلامه هداية لمن يسمعه إلا من سبق عليه القول . ولم يجعل المعجزات سبباً لهداية الناس ؛ لأنها خرق للعادة ، لا تماشياً مع ناموس الكون ، ولذلك هي محل النسخ وليس الدوام ، أما هديه صلى الله وبارك عليه وآله القرآني فدائم بدوام الزمان ولا تتغير آياته ولا تُنسخ .

جاء في الموطأ ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «إيّاكُمْ أَنْ تَهْلَكُوا عَنْ آيَةِ الرّجْم . أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ لاَ نَجِدُ حَدّيْنِ فِي كِتَابِ الله . فَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وَرَجَمْنَا . وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِه ، لَوْلاَ أَنْ يَقُولَ النّاسُ : زَادَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ فِي كِتَابِ الله تَعَالَى ، لَكَتَبْتُهَا (الشّيْخُ وَالشّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتّةَ) فَإنّا قَدْ قَرَأْنَاهَا» . والعجب أن يُقال عن عمر إنه يخاف من كلام الناس في مقابل إثبات كلام الله!!! والغريب في هذا الحديث المنسوب لعمر رضي الله عنه أن الآية التي ذَكَرَها هي الرجم للشيخ والشيخة دون ذكر أسباب الرجم ، كأنما كل من وصل إلى عُمر الشيخوخة يُرجَم كما تفعل بعض القبائل البدائية التي لا دين لها! وإذا كان الرجم فريضة أنزلها الله تعالى كما قالوا ، فكيف يطبق الرجم على الأَمَة المحصنة الزانية؟ فإن عليها ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾[1] كما قال الله سبحانه!! .

---

(١) سورة النساء : ٢٥ .

وفي سنن ابن ماجة عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : «لقد نزلت آية الرجم ورضاعة الكبير عشراً ، ولقد كان في صحيفة تحت سريري ، فلمّا مات رسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتشاغلنا بموته دخل داجن فأكلها» ، وجاء في صحيح مسلم عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : «كان فيما أنزل من القرآن (عشر رضعات معلومات يحرّمن) ثم نسخن بـ(خمس معلومات) فتوفي رسول الله وهن فيما يقرأ من القرآن» ، فهل أكل الداجن آية عشر رضعات وترك هذه الخمس؟ وأين هذه الخمس آيات الآن؟ ومَن أسقَطَها بعد رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله حتى لا تُقرأ من كتاب الله؟ وهل يا ترى كان ذلك الداجن تمساحاً أو كلباً - لأن الكتابة كانت على الكتوف والجلود؟ ولكن لا يمكن أن يكون كلباً لأن الرسول صلى الله وبارك عليه وآله كان يَمنَع تربِيَةَ الكِلاب ؛ وأما التمساح فيستحيلُ عَيشُه في الصحراء أو في بلد يعز فيه الماء .

هذا بعض ما وجدنا عليه آباءنا في أصحِّ ما عندهم من الكتب بعد كتاب الله!! فهل نظلُّ على آثارهم مقتَدين؟ ولا أتصوّر كيف يغفَل مُسلِم من أن تكون مرجعيَّته الله ورسوله ، ويرهَن عقله لغيره من الرجال الذين ليس لديهم عصمة ولن يكونوا له شُفعاء - لأنّهم أنفسهم مُحتاجون للشفاعة - ولا يُسأل عنهم ولا عن فِكرهم ولا عن فعلهم ولم يأمُره الله بالأخذ عنهم ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ

آبَاءنَا . .﴾[1]!! كيف يأبى مسلمٌ أن تكون مرجعيّته كتاب الله وعصمة النبي صلى الله وبارك عليه وآله ؛ الذي أمر الله سبحانه بتعظيمه وتوقيره والأخذ عنه ، ويحشر نفسه في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴾[2]؟

وكيف يقبلون تصديق حصول النقص في القرآن بآيات معينة؟ فهل الأولى تصديق حفظ الله للقرآن من كل تحريف ونقص ، أم اعتبار ما ينسبونه لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله من الحديث صحيحاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى وإن خالف القرآن؟ وعلى الرغم من أنه لا مجال للمقارنة بين القرآن وما ينسبونه هُم إلى رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله .

لقد حملَت المصادر التي وجدنا عليها آباءنا من السلوك والأفعال والأقوال ما لا يمكن نسبته لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله كقولهم : «كان يطوف على نسائه بغسل واحد»[3] بينما الله سبحانه يشهد له ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ﴾[4] ؛ وكنسبتهم له حديث «لم يكذب

---

(١) سورة المائدة : ١٠٤ .

(٢) سورة النساء : ٦١ .

(٣) صحيح البخاري .

(٤) سورة المزّمِّل : ٢٠ .

إبراهيم إلا ثلاث كذبات»[1] وهو القائل : «لا يكذب المؤمن إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون»[2] فنسبوا إليه صلى الله وبارك عليه وآله اتهام خليل الرحمن ورسوله إبراهيم عليه السلام بالكذب ، ليجعلوا حديثه مخالفاً لقول الله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً﴾[3] - كبرت كلمة تخرج من أفواههم! وكقولهم : «أنه كان معه شيطان قرين» ثم يستحون قليلاً فيقولون : «ولكن الله أعانه عليه فأسلم»[4] ؛ ليكون النبي عندهم مُتَّهَماً بالتَغافُل عَن ذكر الرحمن ، قال تعالى : ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[5] ؛ بينما الله سبحانه ينفي الشيطان عن عباده المؤمنين عموماً في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[6] فهل النبي أقل درجة منهم؟ ويقول تعالى على لسان الشيطان : ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[7] فهل لم يكن النبي صلى الله وبارك عليه وآله

---

(١) صحيح البخاري .

(٢) الدر المنثور للسيوطي .

(٣) سورة مريم : ٤١ .

(٤) صحيح مسلم .

(٥) سورة الزخرف : ٣٦ .

(٦) سورة النحل : ٩٩ .

(٧) سورة الحجر : ٤٠ .

منهم؟ وقالوا إنه تزوج بعائشة وهي طفلة في السادسة من عمرها[1] ، على الرغم من أنهم يقولون إنها كانت مخطوبة قبله! فإن كان هذا اعتقادهم فلماذا الاحتجاج على مَن رَسَمَ صورةً لِرَجُلٍ يحمل طفلة يُريدُ الزواج منها ويقول هذا رسول المُسلمين؟ ألَمْ يوضح بتلك الصورة ما جاء في صحيح البخاري؟ ونسبوا إليه أنه أَشَارَ نَحْوَ مَسْكَنِ عَائِشَةَ فَقَالَ : «هُنَا الْفِتْنَةُ (ثَلاثًا) مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»[2] . وقالوا إنه استاء من مجيء أعمى إليه يسأله عن أمر دينه فعبس في وجهه وتولى عنه!! وذلك على الرغم من أن الأعمى لا يُبصر العبوس ، كما أن العبوس والتولي (أو الإدبار) وصَفَ الله بهما كافراً في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾[3] . وقد هَضَمَت ذلك نفوسٌ مريضة وأصبح دفاعها عن هذه المنسوبات يصل حد الاحتراب! وإذا وُصِفَ بها حبيب غير النبي صلى الله وبارك عليه وآله اشمأزّت قلوبهم ، ويُعلِّلون ذلك بأن ما نُسِب للنبي صلى الله وبارك عليه وآله قُصِدَ به التشريع!!! أما مِن أين جاءوا بحُجّة «قُصِدَ به التشريع» ، فلا

---

(١) صحيح البخاري – «حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ بْنُ عُقْبَةَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ عُرْوَةَ تَزَوَّجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَائِشَةَ وَهِيَ بِنْتُ سِتٍّ سِنِينَ وَبَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعٍ وَمَكَثَتْ عِنْدَهُ تِسْعًا» .

(٢) صحيح البخاري .

(٣) سورة المدّثر : ٢٢-٢٣ .

توجد مرجعيّة لذلك لِلعَجز عن معرفة من الذي «قَصَد» – هل هو الله سبحانه أم هو محمد صلى الله وبارك عليه وآله – وهل اطّلعوا على ما في قلبه وعلموا قصده؟؟ فالادّعاء بأن ذلك «قُصد به التشريع» ما هو إلا لتبرير زيف القول والطلاء على العقول لقبول ما يجب رفضه في حق الذات الشريفة المحمدية .

ومن الغرائب أن هناك من يرى في الباحث في إبراز الأحاديث التي تصطدم بما يدَّعونه في تعظيم النبي صلى الله وبارك عليه وآله وحبهم له وبما جاء في كتاب الله تعالى كأنّه يحيي الفتنة ويقولون – دون حياء – إن هناك من الدين ما يجب ألا يطلع عليه عامة الناس!!! وهذا رأي كثير ممن يُظَن أنهم من العلماء . فالإسلام عندهم رسالة خاصة لمن يسمونهم بالعلماء وأخرى للرجرجة والدهماء!!! فالتناقض يجب أن يُحجب عن غير العلماء ، ومن يُظهره فقد قالوا عنه : «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها»[1]!! فهل صاحب الفتنة هو من قَسَّم الإسلام إلى رسالتين ؛ أم صاحب الفتنة مَن يَرفُض ذلك ويَرفُض كُلَّ ما جاء مُخالفاً للقرآن وعِصمَةِ النبي صلى الله وبارك عليه وآله ، ويجعل ذلك هو المنهج والمرجعية؟ ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾[2] .

---

(١) كنز العمال .

(٢) سورة سبأ : ٤٣ .

دين الإسلام أم دين المسلمين ؟

قال تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عندَ اللّه الإِسْلاَمُ﴾[1] وقال تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[2] .

معلومٌ أن الرُّسل كلَهم - صلوات الله عليهم - ما جاءوا من عند الله إلا بالدين ، أي بالإسلام . فإذا كان الله -سبحانه وتعالى- يؤكد أن الدين عند الله الإسلام ، فما جاء موسى عليه السلام من عند الله إلا بالإسلام ، ولم يؤسِّس دولةً ولا حكومة ، ولم يكن حاكماً ولا أميراً . وعيسى عليه السلام كذلك جاء بالدين أي بالإسلام مُصدّقاً لموسى عليه السلام وكتابه وما أَنزَل الله فيه من أحكام ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾[3] ولم ينشئ دولةً ، وما كان ملكاً ولم ينصب نفسه حاكماً أو أميراً ، وقال : «ما لله لله وما لقيصر لقيصر» ولم يُسجِّل التاريخ عن دولةٍ

---

(١) سورة آل عمران : ١٩ .

(٢) سورة آل عمران : ٨٥ .

(٣) سورة المائدة : ٤٦ .

موسَويّة أو دولة عيسَويّة أو دولة إبراهيميّة أو دولة لوطية . وجاء محمد صلى الله وبارك عليه وآله بالإسلام ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾[1] أي التوراة والإنجيل وما أنزل الله . ولهذا فإنّ مَن لا يؤمن بهذه الكتب كما نزلت ، ويُصدِّق بما شرع الله فيها ، ومن لا يحترم أولئك الرسل ويحبّهم ، لاختيار الله لهم كرُسُل وأنبياء ، فقد كفر بما أُنزِل على محمد صلى الله وبارك عليه وآله .

فقد جاء خاتم النبيين مُصدِّقاً لكل ما جاءت به تلك الرسل ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[2] ، ولا تعني الهَيمَنة الإلغاء لما سبق من تلك الكُتُب والديانات ، إنما تعني الوُسع والشُمولِيَّة لما تضمَّنته ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[3] ، ليكون النبي الخاتم رسولاً لسائر الناس السابقين واللاحقين ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[4] ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[5] ؛ لأنّ مَن آمنوا بتلك الكتب السابقة قد آمنوا بما تضمنه كتاب محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، فهم مسلمون مِن قَبل بعثته

---

(١) سورة المائدة : ٤٨ .

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(٣) سورة النحل : ٦٤ .

(٤) سورة سبأ : ٢٨ .

(٥) سورة التوبة : ٣٣ .

وهو رسولهم إن أدركوا أو لَم يُدركوا زمان رسالته ، فالرسل السابقون هم نواب عنه وأخذ الله عليهم العهد والميثاق للإيمان به ونصرته . قال تعالى : ﴿الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكتَابَ من قَبْله هُم به يُؤْمنُونَ * وَإذَا يُتْلَى عَلَيْهمْ قَالُوا آمَنَّا به إنَّهُ الْحَقُّ من رَّبِّنَا إنَّا كُنَّا من قَبْله مُسْلمينَ * أُوْلَئكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْن﴾[1] . فما جاء النبي ، محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، رافضاً ونافياً لكل ما سبق من الدين الذي كان عليه الأنبياء والرسل السابقين وكتبهم ، إنما جاء مُصَدِّقاً لهم ، ولا يكون التصديق إلا على الحقّ ، ولا يَقبَل الإسلام ما يُخالفه ، قال تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغ غَيْرَ الإسْلاَم دِيناً فَلَن يُقْبَلَ منْهُ﴾[2] . فجاء دين محمد ، صلى الله وبارك عليه وآله ، مؤكداً صحة إسلام ما سبق من الدين اليهودي والمسيحي - تعالى الله أن يُنزل ديناً معيباً - ولكن بعضاً من أتباع أولئك الرسل يحرفون الكلم عن مواضعه ، للمغالاة في دينهم ولعصبيتهم الدينية ﴿وَإذَا قيلَ لَهُمْ آمنُواْ بمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمنُ بمَا أُنزلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بمَا وَرَاءهُ﴾[3] لعصبيتهم ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ . . .﴾[4] ومُبيِّناً لهم ما اختلفوا فيه ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ

---

(١) سورة القصص : ٥٢-٥٤ .

(٢) سورة آل عمران : ٨٥ .

(٣) سورة البقرة : ٩١ .

(٤) سورة البقرة : ٩١ .

الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[1] حتى يُقيموا الرسالة على حقيقتها لينالوا الكرامة من الله . . قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴾[2] . فلم تأتِ المسيحية لإلغاء اليهودية ولا الإسلام المحمدي لإلغاء المسيحية واليهودية ، بل جاء مُصَدِّقاً لمن كان قبله من الرسل وكتبهم التي أُنزِلَت عليهم من الله لأُمَمِهم ، ولكن كثيراً من أتباع الرسل تَشَبَّعوا بالعصبيَّة الدينية التي تَنُمّ عن الجهل بوحدة الرسالة والتفريق بين الرُّسُل ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾[3] فكل من يقول ليست اليهود على شيء وليست النصارى على شيء فقد قال مثل قولهم ، فهو من الذين لا يعلمون ، لتَعَصُّبه لرسوله وإثباته التفرقة بين الرُّسُل . فكل أمة مسؤولة عن كتابها وتُدعى إليه ، لا إلى تركه واتّباع غيره ، فالمصدر الذي أتت منه هذه الكتب كلها واحد ، تعالى الله أن ينزل خللاً في أيّ منها ، فكلها مقدسة يجب الإيمان بها ولا يوجد خلل في أصلها إلا ما أحدثه البشر

---

(١) سورة النحل : ٦٤ .

(٢) سورة المائدة : ٦٦ .

(٣) سورة البقرة : ١١٣ .

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾[1] فما أنزل الله من الكتب حقّ لا يبطله الزمان والإنسان ، ولكل أمّة الحق في التمسُّك بما أنزل الله على رسولها إليهم والتحاكم إليه إلى أن تلقى الله ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوه﴾[2] وإن لم تفعل فالله يحكم بينهم يوم القيامة ، وليس لأحد الحقّ في إجبارهم على فعل أو ترك . . ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3] . . ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ﴾[4] ؛ فالله سبحانه يؤكد في القرآن العظيم أن التوراة فيها حكم الله وكلمة حُكم هنا تعني الشريعة ، أي القانون ولا تعني الملك أو السلطان قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[5] أي تشريعاً ، وقال تعالى في موسى عليه السلام : ﴿فَفَرَرْتُ منكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[6] ولا تعني كلمة «حكماً» هنا

---

(١) سورة الجاثية : ٢٨ .

(٢) سورة الحج : ٦٧ .

(٣) سورة المائدة : ٤٧ .

(٤) سورة المائدة : ٤٣ .

(٥) سورة المائدة : ٥٠ .

(٦) سورة الشعراء : ٢١ .

سلطاناً أو مُلكاً ، فلا تكون إلا بمعنى «شريعة» ، وقال تعالى : ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾[1] أي شريعةً ، إذ إنه لم يكن حاكماً ولا صاحب سلطان ، بل قال لقومه : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[2] ، فلا يَنظر أحد إلى التوراة بعد هذا بغير الاحترام والتقدير والتقديس ، إن كان يؤمن بما أُنزل على محمد صلى الله وبارك عليه وآله . ولا تعني الآية ﴿ . . . وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ﴾[3] إقامة دولة دينية يهودية ، فلا يوجد فيما أَنزَل اللهُ لرُسُلِه أمرٌ بإنشاء دولة ، ولكنَّ التَّعَصُّب الديني ، الذي يَنشأ من التفريق بين الرُّسُل ، وحُب السلطة هما اللذان يَدفَعان أتباعَ الدِّينِ المعني لإنشاءِ دولةٍ باسم الدين .

وإذا كان كُلّ الرسل صلوات الله عليهم جاءوا بالدين ، أي بالإسلام كما قال تعالى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[4] ، فذلك يعني أن الدين ، أي الإسلام ، عند كلِّ الأنبياء ما هو إلا شرائعَ بُعِث بها أولئك الرسل لخلقِ المجتمعِ الفاضل وكرامة الإنسان ، الذي هو القصد

---

(١) سورة الأنبياء : ٧٤ .

(٢) سورة هود : ٨٠ .

(٣) سورة المائدة : ٤٣ .

(٤) سورة الشورى : ١٣ .

من إرسال الرُّسُل ، ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[1] من حيث وحدة الرسالة في الشرائع المُنزلة . لكنّ التفضيل بينهم فهو وارد – وهو غير التفريق – ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[2] ، أما من حيث ما جاءوا به من عند الله ، فقد قال تعالى : ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[3] . وجاءت الرسالةُ الخاتمة للرسول الأعظم محمد صلى الله وبارك عليه وآله للإقرار بما سبق من الرُّسُل وصحَّة كتُبهم وتصديقها ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾[4] ، ولتبيان ما كان من اختلاف أُحدث من أتباع الرسل في تلك الرسالات ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ . . .﴾[5] ولتوضيح الحقّ فيها ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[6] وهي الهيمنة ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٣ .

(٣) سورة البقرة : ١٣٦ .

(٤) سورة المائدة : ٤٨ .

(٥) سورة النحل : ٦٤ .

(٦) سورة النحل : ٤٤ .

وَمُهَيْمناً عَلَيْه . . .﴾[1] ، لبيان الأفضلية ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض . . .﴾[2] وليُظهره الله على الدين كلّه ؛ قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه﴾[3] ليُتَمِّم صالح الأخلاق ، التي هي الغاية – قال صلى الله وبارك عليه وآله «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[4] . فأخذ الله العهد على كلِّ الرسل والأنبياء للإيمان بمحمد صلى الله وبارك عليه وآله ولنُصرته ، لهيمنة رسالته ، ولحبّه له ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَاب وَحِكْمَة ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِه وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[5] . فمَن لم يَعلَم لماذا كانت بعثة محمد صلى الله وبارك عليه وآله تحديداً فقد جهله وجهل ما جاء به ، سواء أكان من الذين آمنوا أو الذين هادوا أو النصارى أو الصابئين ؛ فإن بمَعرِفة مقصد البعثة تنتهي العصبية الدينية والتحزُّب والبغضاء .

فالعصبية الدينية الموجودة اليوم هي تقنين للعداءات وتبرير

---

(١) سورة المائدة : ٤٨ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٣ .

(٣) سورة التوبة : ٣٣ .

(٤) مسند أحمد .

(٥) سورة آل عمران : ٨١ .

للحروب والغزو المتبادل ، ومُنتِجة للبُعد عن منهج الله القائم على الحب والمعرفة وحرية الإنسان . أما وحدة الرسل والرسالات فهو أمرٌ واضح في كتب الله يأبى التفريق ويُثبِت التفضيل .

دعوة الرسول

لم يُرسل الله سبحانه وتعالى نبيَّه محمداً صلى الله وبارك عليه وآله ليُنشئ دولةً – لأنّ الرسالة ليست إنشاء دولة – وإلا لكان اكتمال إنشاء الدولة هو الغاية والفراغ من الرسالة . ولم يرسله ليُكَوِّن حكومةً لِنَشر الرِّسالة ؛ فإنَّ للحكومة عمراً لا تُجاوزه ، ولا يمكن أن تبقى إلى قيام الساعة . ولم يُرسِله لأن يُقيم مُلكاً دنيوياً مُتَسَلِّطاً للتوارُث الأُسَري ؛ فقد رَفَضَ المُلك أساساً حينما عُرِضَ عليه في بداية الدعوة بمكة ، كما أنه لَم يوصِ بقيام دولة أو إمارة . وليس هناك غموضٌ أو ارتياب في أمرِ الرسالة ، التي هي ما أنزَلَ الله من الشرائع ، ولا في كيفيَّةِ نشرها ، فلم يَترُك الحق سبحانه الأمر للاجتهاد ، بل حدَّد ما على الرسول صلى الله وبارك عليه وآله في أداء الرسالة وكيفيَّته والمطلوب منه تحديداً فقال تعالى : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلَاغُ﴾[1] . وفي هذه الآية يكمُن سِرّ الرسالة العظيم ، فالله سبحانه قد تكفَّل بدعمها وإقامتها وإظهارها ، دون حاجة

(١) سورة النور :٥٤ .

لِدعم بشري مادي . ورَفَعَ عن كاهل الحبيب صلى الله وبارك عليه وآله عبء ما تقوم به الدعوة وسبيل نشرها وانتصارها وهيمنتها لحبه له قال تعالى : ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[1] ؛ لأنّ الحقّ يقوم بنفسه ويحتاج إليه غيره لينتصر به ، ولا يحتاج هو إلى غيره ، لذلك قال الإمام علي عليه السلام «أعرف الحق ، تعرف أهله» وقال تعالى ﴿قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾[2] . ولذلك لا يصحّ أن يُنسب إلى النبي صلى الله وبارك عليه وآله حديث «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ»[3] لأنّ الإسلام هو الحق ، والحقّ لا يُعّزُّ بالرجال ، بل العكس . والحديث كذلك يُثبت حُب الله لأبي جهل وعمر بن الخطاب – وهُما كافران حينذاك – إلا أنّ أحدهما أحَبُّ إلى الله من الآخر! فكيف يكون الحُبُّ لكافر والله سبحانه يقول : ﴿ . . . فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[4]؟ ثم إذا كانت هناك حاجةٌ إلى الرجال ، لماذا لم تُطلَب العزة بالرجلين معاً؟ وإذا كان هناك رأيٌ بأنّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله كان يَعلَم أن أحدهما سيكون مع الإسلام والآخر مُخالِفاً ، فإنه لا تبقى مع هذا العِلم حاجةٌ للدُعاء أصلاً .

---

(١) سورة طه : ١ .

(٢) سورة الحجرات : ١٧ .

(٣) سنن الترمذي ومسند أحمد .

(٤) سورة آل عمران : ٣٢ .

وإذا كان ﴿ . . . وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾[1] كما حدد الله سبحانه ، فهو ليس بحاجة لمن يساعده في هذا البلاغ ، فقوة الدعوة تكمن فيها ولا تحتاج إلى أحد الرجُلين ، ولا لأي قوة خارجية أو حكومة لدعمها ، فذلك ظنّ الذين لا يؤمنون . وما جاء إظهار الرسالة بالضعف وحاجتها إلى الرجال وإلى قوة خارجية إلا من أولئك الذين يرون أن إقامة الدولة هي الأولى والأهم ، وأنّ الدعوة لا تقوم إلا بالسلطان ، خلافاً لما جاء من عند الله سبحانه ، وما ذلك إلا ضعفاً في الإيمان ، وشَكّاً في الدعم الإلهي ، وفي قيام الحق بنفسه ، أو حُبّاً للسُلطة التي نفاها الله سبحانه وتعالى عن رسوله العظيم ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[2] ، أو تعصُّباً بِجَهلٍ يَرفُضُ قبولَ الدين عند رسول آخر ، ﴿ . . . كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾[3] ، وهو إثبات التفرقة بين الرُّسُل .

ولا يحقّ لأحد أن يقول إنّ إقامة الدولة قد يدخُل في كيفية هذا البلاغ ، فإن الدولة تقوم على فرض سلطتها على الناس ، وهو الإكراه الذي يتنافى والإسلام ؛ كما أنّ تلك الآية الكريمة عن قيام الرسول بالإبلاغ فقط ، لا تنفي إكراه الناس على الإسلام فحسب ، بل تمنع حتى الحرص على قبول الآخر

---

(١) سورة النور : ٥٤ .

(٢) سورة الغاشية : ٢٢ .

(٣) سورة البقرة : ١١٣ .

لما تدعوه إليه ، لأنه ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[1] . وكيفيَّة البلاغ أيضاً قد حدّدها الله سبحانه ولم تُترَك لاجتهاد كذلك ، فقال تعالى : ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[2] فلا خروج عن هذا الأسلوب في أداء الرسالة . وما كانت الرسالة سبباً ليكون النبي صلى الله وبارك عليه وآله حاكماً أو مُتسلِّطاً لإكراه الناس عليها ، ولم يتَّخذها صلى الله وبارك عليه وآله سَبَباً لذلك ، ولا ينبغي ذلك لأحدٍ من بَعده مهما كانت المُبَرِّرات ، والتظاهر بالحفاظ على الدين أو نشره .

ثُم بعد البلاغ من الرسول صلى الله وبارك عليه وآله للناس بما شرعه الله لهم من الشرائع للتعامل في الأمور الاجتماعية فيما بينهم ، وفي الأمور التعبُّديَّة الشخصيّة مع خالقهم بالأسلوب الذي حَدَّدَهُ الله سبحانه وتعالى في التبليغ بالكيفية التي أمر بها ؛ فهل هناك بعد هذا أمرٌ للرسول صلى الله وبارك عليه وآله بمتابعة الناس لتنفيذ هذه الشرائع؟ يمكننا القول بالإيجاب ، ولكن المتابعة أيضاً وضَّحها الله سبحانه وتعالى ولم يتركها للاجتهاد ، وهي لا تعدو تذكير المؤمنين فقط ، قال تعالى : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[3] ؛

---

(١) سورة البقرة : ٢٧٢ .

(٢) سورة النحل : ١٢٥ .

(٣) سورة الغاشية : ٢١-٢٢ .

أما مَن كفر ، برفضه للدين ، فلا سُلطةَ عليه ، ويُترَك وشأنه ﴿وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[1] ، فالله سبحانه هو الذي يتولّى جزاءه في الآخرة ، وليس في هذه الدنيا ، ما لم يُبادِر بالاعتداء على رسله ، قال تعالى : ﴿إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[2] فإنّ عذاب الأمم في الدنيا لم ينزل عليهم بسبب كفرهم ، بل لأنّهم همَّوا بإيذاء رسلهم ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّة بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾[3] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . . .﴾[4] لينتفي الإكراه والتَسَلُّط والعقاب في الدنيا باسم الدين على من يكفر أو يرفض تنفيذ الأوامر الشرعية التعبُّديَّة ، اجتماعيةً كانت أو شخصيّة . وأعني بالتعبُّديَّة الاجتماعية الالتزام بالشرع – أي بما أنزل الله – في المعاملات كالبيع والجنايات والإرث وعموم العقود . وأعني بالشخصيّة تلك التي بين العبد وربِّه من العبادات كالصوم والصلاة والحج والزكاة . والزكاة عبادةٌ شخصية ولكنها تتعلق بالمجتمع من حيث إنفاقُها لا من حيث إخراجُها ، ويجب على المؤمن إخراجها ويجب ألاّ يُكره على ذلك كما يحصل من جَهلَة جامعي الزكاة ، ويظنّونه

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

(٢) سورة الغاشية : ٢٣-٢٦ .

(٣) سورة غافر : ٥ .

(٤) سورة إبراهيم : ١٣ .

تمسُّكاً بالدين! وما جاء هذا الفهم الخاطئ في الإكراه في أخذ الزكاة إلا من أولئك الذين اتَّخذوا أو ظَنّوا أنّ الإسلام هو الدولة . أمّا قوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1] فلا يُفهَم منه الإكراه في أخذ الصدقة على الإطلاق ، لأنّه لا إكراه في الدين أصلاً كما أمَر الله سبحانه ، فكيف يجوز الإكراه في جزءٍ منه كالزكاة؟! إنَّ ما يُفهَمُ من الآية هو استلام ما يُخرجونه طواعيةً من أموالهم من زكاة ؛ قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾[2] ، فالله سبحانه لا يأخذها كفاحاً وقَسراً ، بل المقصود هو أن الله سبحانه هو الذي يأخذها حين يُخرجها العَبدُ طواعية . وبَيَّن النبي صلى الله وبارك عليه وآله عَدَم أَخْذِ الزكاة بالإكراه وذلك برفضه قبولها ممّن سبق وأحجم عن إخراجها ، وجَعَل ذلك عقوبةً له[3] . وهذا يوضح أنّ التقصير ، أو الامتناع عن أداءِ الأمور التعبُّدية الشخصية تكون المُحاسَبة والعقاب عليه عند الله في الآخرة فهو الحاكم بشريعته ، وحكمه مؤجل – وإن شاء عجل به – ولا وكيل عنه في الدنيا ، ولا يكون التقصير في الدين أو رَفضُه سبباً لحاكم أو أمير ليتسلط به على إنسانٍ في هذه الدنيا لأنّ هذه العبادات بين العبد وربّه . كما أنّ

---

(١) سورة التوبة : ١٠٣ .

(٢) سورة التوبة : ١٠٤ .

(٣) كما جرى لثعلبة بن حاطب الأنصاري – فيض القدير .

النبي صلى الله وبارك عليه وآله أمر عامله للزكاة أن يُخبِر الناس أنّ الله قد فرض عليهم صدَقة «تؤخذ من أغنيائهم ، فترد على فقرائهم» فإن هم أطاعوا له بذلك ، «فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنّه ليس بينه وبين الله حجاب»[1] ، وأمَرَهُ بِرَدِّها على فقرائهم لا الإتيان بها إليه . وأخْذُ النبي للزكاة لم يكن لكَونه حاكماً أو سلطاناً – حيث إنه لم يؤمر بغيرِ التبليغ بالدين كُلِّه الذي ينعدمُ فيه الإكراه – إنما لأنه هو الأقدر على توزيعها ، كما أنها مُحرَّمةٌ عليه وعلى آل بيته صلى الله وبارك عليه وآله . ولم يُجبِر أحداً على إخراجها حتى نزول قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[2] . فسدّ بذلك باب التشريع في الدين – لاكتماله – ومَن يرى غير ذلك فإنه يتّهم النبي صلى الله وبارك عليه وآله بعدم إكمال تبيين ما أُرسِل به ، وينظر إلى مَن هو أرجح منه عقلاً ليُضيف أو لِيَنتقِص مما ترك النبيُ الناسَ عليه!! وليقول إنّ إكراهَ الناسِ وإجبارِهم على دَفع الزكاة من الحاكم أفضلُ مما فَعَلَهُ رسول الله صلى الله وبارك عَليه وآله في عَدَمِ إكراهِ الناس على دَفعِها!! وليعلم أنّ ذلك ليس هو الإسلام الذي جاء به محمدٌ صلى الله وبارك عليه وآله ، وسَمِّه ما شئت ؛ لأنه تشريعٌ مِن حاكمٍ مدني ، وليس تشريعاً مِن النبي المعصوم

---

(١) صحيح البخاري .

(٢) سورة المائدة : ٣ .

صلى الله وبارك عليــه وآله . وليــست الزكــاة هي بيت مــال المسلمين – كـما يحلو تسـميتـها بذلك مِن أصحـاب السلطان ليقولوا إنّ الإسـلام دولة و ليجعلوا للحاكم حقّ التصرف في مال الزكاة وصرفه في غير ما حدده الله سبحانه باجتهادٍ مِن هواهم ، ويظنونه من الـدين وهو تعـدٍّ على حـدود الله وشـرعـه – إنما هي حقٌّ الفقراء المنصوصِ عليهم في كتاب الله لا غير ، ولا اجتهاد مع النص المُحَدّد .

دولة أم دعوة ؟

لا تتعدى المتابعة على القيام بشرائع الرسالة التذكير ، قال تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] . أما الإكراه على التنفيذ ، والسيطرة على الناس من أجل دعوتهم إلى الله فهي أمورٌ لم يشرعها الله سبحانه ولا أصل لها في رسالة محمد صلى الله وبارك عليه وآله . ولا يُمكن القول بأنّ الإكراه والإجبار من أساليب الدعوة بحالٍ من الأحوال ، إنما هو تسلُّط وقهرٌ لا مجال فيه لعمل العقل بحرية بالقَبول أو الرَّفض ، كما في الدعوة والتي هي التبليغ والتذكير لا أكثر ، قال تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلَاغُ﴾[2] . ولم يُعطِ الله سبحانه رسوله صلى الله وبارك عليه وآله وأعلم الناس بدينه ورسالته حق التسَلُّط على الناس ، ليُكرههم على ما جاء به من عند الله ، لأنّ الإكراه لا يدلّ على حُسن الخُلُق وهو أبعد ما يكون عن عظيمها . فخَلا طبع

---

(١)سورة الذاريات : ٥٥ .

(٢)سورة الشورى : ٤٨ .

النبي صلى الله وبارك عليه وآله مِن الإكراه ، مُتَناسِباً لِما أُرسِلَ به مِن الدين . فكيف يجوز لغيره – على نقصِ علمِهم – إكراه الناس على الدين؟

فخُلقَ النبي صلى الله وبارك عليه وآله فاقداً لغلظة القلب ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1] ، مُتَدثِّراً بأخلاق بَلَغَت مِن العَظَمَةِ أن مَدَحَهُ بها مَن خَلَقَه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2] –ولذلك قيل له : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾[3] بعظيم الأخلاق – التي تنعدم فيها الغلظة المطلوبة للإنذار – لابد لك من التّحلّي والتّجلّي بلبس نوع من الجلال لتُنذر الناس ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾[4] . فالأمر يتعلق بلباس التقوى ، قال تعالى ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[5] ، لا بكثير من الملابس والأغطية خوفاً ووجلاً من المَلَك كما يرى البعض الذين جهلوا قَدرَه صلى الله وبارك عليه وآله ، ناسين أو مُتَناسين قول الله جلَّ شأنه : ﴿إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾[6] . ويرى البعض – جَهلاً – أن هِجرة الرسول صلى الله وبارك عليه وآله ليلاً ما

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٢) سورة القلم : ٤ .

(٣) سورة المدّثر : ١ .

(٤) سورة المدّثر : ٢ .

(٥) سورة الأعراف : ٢٦ .

(٦) سورة النمل : ١٠ .

كانت بمستوى شجاعة مَن هاجَرَ نهاراً وقال : «من أراد أن تثكله أمه ، ويوتم ولده ، ويرمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادي»[1] ، بينما المُحَقِّقُ في الأمر يَجد أن الرسول صلى الله وبارك عليه وآله خَرَجَ على أربعين رجُلاً يريدون دمه ، فَحَثى التُراب على رؤوسهم جميعاً ، الواحد تلو الآخر . فهل يدُل ذلك على الخوفِ منهُم؟! وأي شَجاعة تُطلَب في مِثلِ هذا الموقف أكثر مما فَعَلَه رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله؟ ليَعلم مَن جَهِل أن لا أحد يفوق النبي صلى الله وبارك عليه وآله شجاعةً ، وقال سيدنا علي عليه السلام : «ثم كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه»[2] . وليَعلم كذلك مَن جهل قَدر رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله أنَ كُل ما يَفعله النبي صلى الله وبارك عليه وآله إنما هو رحمة للعالمين . فكَبُّ التُراب على رؤوسهم كان رحمةً بهم ، إذ أنزَلَ عليهم النوم حتى لا يستيقظوا فيسعوا لأذى النبي فيأخُذهُم الله أخذَ عزيز مُقتَدِر ، فإنّ الله سبحانه يغار على رسوله حتى مِن سقوط الذُباب عليه . فقد كان مِن عظيم خُلُقِه أنه إذا قيل له ادعُ على الكفار قال : «إن الله تعالى لم يبعثني طعّاناً ولا لعّاناً ، ولكن بعثني داعيةً ورحمة ، اللهم

---

(١) أسد الغابة .

(٢) مسند أحمد .

اهد قومي فإنهم لا يعلمون»[1] . فهجرة النبي صلى الله وبارك عليه وآله لم تكُن عن خوف ، فإن الله نفى الخوف عن أنبيائه ، ولم تكُن لغرض إنشاء دولة في المدينة لنشر الرسالة ؛ إذ ليس عليه إلا البلاغ ؛ لذلك فإن هجرته كانت رحمةً لأهل مكة حتى لا ينزل الله عليها العذاب ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[2] ؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى يُنزل عذابه على الناس إذا هموا بإيذاء رسله ، قال تعالى : ﴿ . . . وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[3] وقال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾[4] . وكذلك كانت هجرته رحمةً لأهل المدينة الذين استقبلوه فرحين بمقدَمه الشريف ، فسبقوا المهاجرين بالإيمان ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيْمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي .

(٢) سورة محمد : ١٣ .

(٣) سورة غافر : ٥ .

(٤) سورة إبراهيم : ١٣ .

أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1] ، كذلك كانت رحمةً على الأرض التي ضَمَّته صلى الله وبارك عليه وآله حيثُ صارت أفضل من جنات الله العُلى . أما ما جاء عن خوف موسى عليه السلام من الله فسببه أنه سبق أن قتل نفساً قبل الرسالة ، فكان الاستثناء الإلهي ﴿ . . . إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] .

فإكراه الناس وإجبارهم على الدين من قِبَل السلطان يعني أن مَن لم يمتَثِل للأمر السُلطاني سيلقى جزاءه بالحساب والعقاب في هذه الدنيا من الحاكم ، ولا يُترك أمرُه لله سبحانه . فالحاكم المُكرِه للناس على الدين يُحاسِب ويُعاقب كل من لا يستجيب له ، ويكون بذلك قد أعطى نفسه الحقّ في الدنيا في ما لله في الآخرة من الحساب والعقاب للعباد ، ونصَّب نفسه وكيلاً عنه لإنزال العقاب الإلهي لمن يرفض دعوته للدين – وتلك الوكالة لم يُعطها الله سبحانه حتى لنبيه الكريم ؛ قال تعالى : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[3] . فلينظر هذا الحاكم المُكرِه للناس على الدين كيف اغتَصَبَ حق الله في الآخرة ليَتَألَّه به

---

(١) سورة الحشر : ٩ .

(٢) سورة النمل : ١٠ – ١١ .

(٣) سورة الأنعام : ١٠٧ .

(٤) سورة الكهف : ١٠٤ .

في الدنيا ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾!!(٤)

إنّ إكــراه الناس على أمـرٍ مــا لا يكون إلا من حــاكم أو سلطان ، والرســول صلى الله وبارك عليـه وآله لم يُكرِه أحـدًا على أمرٍ قط حتى لمن كان يخدمه لم يقل لشيءٍ فعله لم فعلته أو لشيء تركه لم تركته ، لأنه لم يكُن حاكماً ولا سلطاناً ، بل رَفَض المُلك حينما عَـرَضَ عليه قـومه أن يكون ملكاً عليـهم ويترك الدعوة إلى الله ، فأكَّد لنا بذلك التبايُن بين المُلك والدين وعدم وجود صِلة بينهما ؛ كما رفض ما عُرِضَ عليه من مالٍ ليكون أكثرهم مالاً . فقام بالرسالة دون وجود ما لا يمكن قيام الدولة إلا بهـمـا ، ألا وهمـا المال والسلطان . فـبـيَّن صلى الله وبارك عليه وآله منذ البداية أنّ الدين لا يقوم على السلطان ولا على المال ؛ إذ ليس هو دولة . وليست أموال الزكاة مال الدولة أو السلطان ليتصرف فيها حسب اجتهاده بل هي مال الله يُرَدُّ على عباد الله الذين حددهم سبحانه وتعالى وبيَّنهم رسوله صلى الله وبارك عليه وآله . فأينما وُجِدَ الإكراهُ فلا وجود للدِين به .

ما هو حكم الله ؟

أنزَل الله التشريعات الإلهية ليحتَكِم إليها الذين يرتضونها من الناس ، ولم يؤمر صلى الله وبارك عليه وآله بإنشاء دولةٍ لرعاية تنفيذها . والتشريعات هي التي أَرسَلَ الله بها جميع رُسُله – وهي حكم الله– ليُبَلِّغوها للناس لا أكثر و دون إكراه ، لا ليُنَصِّبوا أنفسهم حُكاماً – كما قال مَن جهِل الدين – «موَقِّعين عن رب العالمين» نيابةً عنه ويفرضوا على الناس سيطرتهم لقبولها بسبب علمهم بالدين وقربهم من الله تعالى ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[1]؟ وأمَرَ سبحانه أتْباعَ رُسُلِهِ صلوات الله عليهم بالتحاكم بما جاء في كتبهم – التي ارتضوها برغبتهم – رحمةً بهم ، لتربيَتهم وترقيَتهم للوصول بهم إلى سُموِّ الأخلاق التي يقوم بها المُجتمع الفاضل ، وإلا كانوا من الكافرين ، وإن كفروا فإنّ حسابهم على الله في الآخرة وليس لأحد الحق في إجبارهم على شيءٍ من الدين في هذه الدنيا

(١) سورة النحل :٣٥ .

﴿ . . . وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[1] .

قال تعالى : ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فيه وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2] وهذه تُفيد صلاحية الإنجيل للمسيحيين للتحاكُم بما أنزَل الله فيه ، وأنّ المسيحيَّة ليست ديانةً مُلغاة بسبب قيام بعثة محمد صلى الله وبارك عليه وآله - ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[3] ويرون أنها أصبحت ديانة الكُفر! وكأنها لم تأت من عند الله ولا يجب الإيمان بإنجيلها! - فأتباع عيسى عليه السلام مُسلِمون كما قال تعالى في القرآن العظيم ، وجَعَل الله مكانتهم فوق الكُفار إلى يوم القيامة - وليس فقط إلى وقت بعثة محمد صلى الله وبارك عليه وآله - ولا يحقّ لأحدٍ أن ينزع عنهم صفة الإسلام التي وصَفَهُم بها الله سبحانه ويلبسهم صفة الكفر بغير وجه حق ؛ وإيمانهم بما أُنزِل على عيسى عليه السلام هو إيمانٌ بما تضمَّنه كتاب محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، لأنّه صَدَّقَ على ما جاء في الإنجيل وحوى كُل ما فيه ، فهم من قَبله مسلمون ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ من قَبْله هُم به يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

(٢) سورة المائدة : ٤٧ .

(٣) سورة البقرة : ١١٣ .

مِن قَبْلِه مُسْلِمِينَ﴾[1] ؛ إلا مَن لم يؤمن منهم بعيسى عليه السلام نبياً ورسولاً . . قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[2] .

أما حديث «من بدل دينه فاقتلوه»[3] الذي لا يمكن قبول نسبته للنبي صلى الله وبارك عليه وآله فلا تقوم به حُجَّة لأصحاب العنصرية الدينية الذين يرون التفرقة بين الرُّسُل وفي الإيمان بهم وكُتُبهم المُنزَلة عليهم ويُكَفِّرون أتباع غير رسولهم ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِه وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾[4] ، فَهُم أصحاب التَفرقة والغلو في الدين ، الأمر الذي نهى الله عنه حيث قال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾[5] ، ذلك لأنّهم قالوا : ﴿كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ﴾[6] ، وكذلك قال تعالى لقوم محمد صلى الله وبارك عليه وآله : ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا

---

(١) سورة القصص : ٥٢-٥٣ .

(٢) سورة آل عمران : ٥٥ .

(٣) صحيح البخاري .

(٤) سورة النساء : ١٥٠ .

(٥) سورة المائدة : ٧٧ .

(٦) سورة البقرة : ١٣٥ .

وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1] حتى لا يقعوا في العصبية الدينية كما فعل الذين من قبلهم - فيرفضون الديانات السابقة ويُكفّرون أتباعها رغم وصف الله تعالى لهم بأنهم مسلمون - ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾[2] بينما نبي اليهود ونبي النصارى عليهما السلام وهما من أولي العزم لم يأتيا بغير الإسلام الذي جاءت به كل الرسل ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[3] . فالدين الذي جاءت به كُل الرُّسُل يَجمَع ولا يُفرِّق ، ويدعو للمحبة لا البغضاء والتحزُّب والتكفير . فالذين يسعون للعُنصرية الدينية ﴿ . . . وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً﴾[4] ؛ قال تعالى ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[5] ، ووَصَفَ النبي محمد صلى الله وبارك عليه وآله العُنصرية بأنها مُنتنة وقال : «دعوها فإنها منتنة»[6] . وما جاءت الرسل من عند الله بدياناتٍ يناطِحُ بعضها بعضاً ، تعالى الله عن ذلك

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٦ .

(٢) سورة العنكبوت : ٤٧ .

(٣) سورة العنكبوت : ٤٧ .

(٤) سورة النساء : ١٥١ .

(٥) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(٦) صحيح مسلم .

لأنّ ذلك مدعاةً إلى القتال الذي يُهلك الحرث والنسل ، وإلى كراهية الأُمَم لبعضها بدلاً عن المحبة وحُسن المعاملة اللذين جاءت بهما الأديان ؛ لذا يجب النظر في هذا الحديث أولاً إلى كلمة «الدين» التي هي الإسلام – وهو ما جاءت به كلّ الرسل – فلا يكون معنى «من بدّل دينه» هو الذي تحوَّل من اتّباع رسولٍ إلى آخر لأنه لا فرق بين الرسل الذين جاءوا كلهم بالإسلام ، وإلا كان مَن ترك الديانة المسيحية ودخل في دين محمد صلى الله وبارك عليه وآله قد بدَّل دينه ويجب قتله ؛ كذلك يجب قتل مَن ترك الديانة المسيحية ودخل في الديانة اليهودية ، وأيضاً قَتْل مَن تَرَك الدين اليهودي ودخل في دين محمد صلى الله وبارك عليه وآله لأنه بدل دينه! ولذلك فلا يُقتل أحدٌ – بحسب الحديث المنسوب – بسبب أنه «بدل دينه» حتى ولو كان معنى «بدل دينه» هو أنه كَفَرَ بجميع الرسل وكتبهم ، وعَبَدَ هُبَل واللات والعُزّى ؛ فلا يجوز القتل أصلاً بسبب الكُفر إلا لمُحارِب – وقبل أن يؤسَر – فتَنتَفي الحُجَّة بالحديث بكل المقاييس قال تعالى : ﴿ . . . وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾[1] .

والمرء لا يُبدِّل دينه إلا إذا رأى ما هو أفضل منه ؛ وإذا كان هناك تمايزٌ بين الأديان ، فالذين يرون أفضلية ما هم عليه من الدين يجب ألا يُكرِهوا عليه أحداً لأنَّ الأفضل لا يحتاج إلى

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

أن يُجبَر عليه الناس ، بل هو جاذِبٌ للناس لأفضليته . فيجب عليهم أن ينظروا لماذا يلجأ الناس إلى غير دينهم؟ فلا بد أن يكون هناك أمرٌ مُنفِّر لا يليق ممن يتبعون ذلك الدين ، اضطرَّ الناس إلى تركه واللجوء إلى غيره ؛ إذ يستحيل أن يكون هناك عيبٌ مُنَفِّرٌ في دين الله الواحد الذي أنزله على نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم . فالنظر يجب أن يكون في سلوك الذين يعتنقون ذلك الدين ، فإنّ الدين عند الله واحد وهو الإسلام ، ولكن أتباع الرسل هم الذين – بسلوكهم وأخلاقهم – يُنَفِّرون الآخرين أو يُحبِّبونهم فيه ، وهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه .

والحُكمُ بما أنزَلَ الله لا يعني الدولة أو السُلطة السياسية ، بل يعني التعامل طواعية بما شرع الله سبحانه بين الناس ، فإن لم يفعلوا خرجوا عن حكم الله ، وليس لأحد الحق في التسلط عليهم بعدم التزامهم بحكم الله أي بشرعه ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[1] ، وأمْرُهم إلى الله ليحكم بينهم في الدار الآخرة . فالحاكم هو الله بِشَرعِه والجزاء عنده في الآخرة ، وتفسير «الحكم بما أنزل الله» أنه الدولة ليس صحيحاً فقد قال تعالى : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا

(١)سورة الشورى : ٤٨ .

أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ﴾[1] ، ومعلومٌ أنّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله ما كان حاكماً ولا سلطاناً ولا أميراً ، بل هو الشفيع للمذنبين عند المَلك الحقّ الحَكَم العَدل في الدنيا والآخرة ، وبالتالي لا يكون معنى قوله تعالى : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ﴾[2] إلا القضاء ؛ قال تعالى : ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّه﴾[3] ولا يعني حُكم الله إقامة دولة ، فَلَم يُنشئ موسى عليه السلام دولة يهودية حتى لا يكون الدين محصوراً في دولة ، وبالتالي كل من أنشأ دولةً باسم الدين فقد خالَف ما أنزل الله ، ولا تعني الآية إعطاء الحق لليهود بإنشاء دولةٍ باسم الدين اليهودي ، بل تُشير إلى التشريع الموجود في التوراة الذي صدّقه ما جاء به محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، ولذلك لا يوجَد سبب يدعوهم للّجوء إلى رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله طلباً لحُكم غير الذي في كتابهم التوراة . فحُكمه تعالى لا يختلف فِي الَّتوراة والإنجيل والقرآن ، ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4] . كذلك لا يُفهم من الآية

---

(١) سورة المائدة : ٤٩ .

(٢) سورة المائدة : ٤٩ .

(٣) سورة المائدة : ٤٣ .

(٤) سورة النحل : ٦٤ .

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ﴾[1] قيام دولة باسم الدين المسيحي . فالواضح من هذه الآيات أنّ حُكم الله هو التشريعات التي أنزلها الله تعالى في كُتُبِه المُقدَّسة ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[2] فالحكم بما أنزل الله هو القضاء بالتشريعات المُنزَلة من الله تعالى في كُتُبِه المُقدَّسة وليس الحكم السياسي باسم الدين .

قال تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3] . هذه تشريعات التوراة التي عند اليهود ﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ﴾[4] ، وتضمَّنها القرآن المجيد ، وهي التي يتحاكم إليها اليوم من هو على دين محمد صلى الله وبارك عليه وآله . ولا أوضح من هذا لتبيان أن ما

---

(١) سورة المائدة : ٤٧ .

(٢) سورة المائدة : ٤٤ .

(٣) سورة المائدة : ٤٥ .

(٤) سورة المائدة : ٤٣ .

أنزل الله في كل الأديان هي الشرائع وهي حكم الله ، والحُكم بما أنزل الله هو القضاء بها – لا استغلالها للإمارة والتسلُّط السياسي ؛ قال تعالى : ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾[1] . فالناسُ هم الذين يُحَكِّمونه فيما شَجَر بينهم ، وليس هو المتسلِّط عليهم بِحُكمِه لأنه لم يُعط نفسه سُلطة إجبار أو إكراه عليهم بالدين ، فيقبلوا ما يقضي به صلى الله وبارك عليه وآله دون حرج ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[2] .

فسُلطة النبي صلى الله وبارك عليه وآله في القضاء بما أنزَل الله – أي حُكمه بين الناس – جاءت من عند الله تعالى الذي أمر الناس الذين آمنوا برسالته عن طواعيةٍ وحُب ، بالتسليم التّام له والاحتكام إليه وقَبول حُكمه وقضائه بلا حرج في أنفسهم ، لأنه معصوم . فَهُم الذين يُحَكِّمونه وليس هو الذي يتحكَّم فيهم من عنده أو يتسلط ؛ بل الله هو الذي يمدّه بسُلطان ينزله عليه ﴿ . . لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾[3] ورغم هذا السلطان الإلهي يُقال له : ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[4] . لذلك لم تكن له شرطةٌ لتنفيذ

---

(١) سورة النساء : ٦٥ .

(٢) سورة ق : ٤٥ .

(٣) سورة النساء : ٦٤ .

(٤) سورة الغاشية : ٢٢ .

حُكمه وقضائه . ولكن مَن جاء بعد النبي صلى الله وبارك عليه وآله لم يجد بُدّاً من ذلك لأن سُلطتهم سياسيةٌ اختلَقوها بمَن حولَهم من الناس ، ففرَضوها وأجبروا الناس على قبولها ، واتّخذوا لها الشرطة والعسس وسموها ديناً!!

فالنبي صلى الله وبارك عليه وآله ليس مُجتَهداً فيما أُنزل إليه من تشريعات ليُبيِّنها للناس ؛ بل هو المُشَرِّع بأمر الله . فلا يُنسَب إليه خطأٌ في أداء رسالته واتِّباع ما أنزَل الله ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾[1] . ولا مجال للحديث عن نسبة الخطأ للنبي صلى الله وبارك عليه وآله وعَدَمه ؛ فالخطأ يُعرَف بالقياس على الحق ، والنبي صلى الله وبارك عليه وآله هو حقّ ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾[2] وهو الذي يقوم بعمل الحق وتشريعه ، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[3] فكل عمله حقّ . فالذي يُقال فيه أنه لا يخطئ فذلك يكون بِعرض عمله على حقٍّ موجود يجب عليه اتِّباعه ولا يحيد عنه ؛ أما النبي صلى الله وبارك عليه وآله فهو الذي يرسي هذا الحق الذي عليه تُقاس أعمال الآخرين . فلا يُقال في عصمة النبي صلى الله وبارك عليه وآله إنه لا يُخطئ ؛ لأن أفعاله لا تُقاسُ على حقٍّ سَبَق ، بل هي الحق الذي يُتَّبَع ويكون

---

(١) سورة يونس : ١٥ .

(٢) سورة آل عمران : ٨٦ .

(٣) سورة الإسراء : ١٠٥ .

بهـا الحُكم على من يتَّبع النبي بالصـواب أو الخطأ في قـول أو فعل . ويختلف معنى العصمة عند غيره ، فإذا قيل عنه إنه معصوم فذلك يعني أنه لا يخطئ بالقياس إلى ما جاء به النبي صلى الله وبارك عليه وآله من تشريع . فكان الأمرُ الإلهي لِمن آمَن هو ﴿وَمَـا آتَاكُمُ الرَّسُـولُ فَـخُـذُوهُ وَمَـا نَهَـاكُمْ عَنْهُ فَـانتَـهُـوا﴾[1] ، وهو التَـفـويض الإلهي له في أمر الدين كله لِعصمته . فلا ينبغي لمؤمنٍ الاعتراضُ أو رفض ما يصدُر عنه أو محاولة النظر في صحته وعدم خطئه برأيٍ منه وبدعوى عِلم يُحاكِم به أفعال النبي صلى الله وبارك عليهِ وآله وإخضاعها للخطأ والصواب . فالنبي صلى الله وبارك عليه وآله هو الذي كُلّ فعله تشريع ، وهذا أمرٌ لا يكون لغيره مِن أمّته لاحتمال الخطأ عندهم واستحالته على النبي صلى الله وبارك عليه وآله ؛ لأنه ليس له مِن الأمر شيء ، إنما أمرُه أمر الله ، قال تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾[2] ، لذلك كانت طاعته هي طاعة الله . فلا تكون المُقارنة بين فعله وفعل غيره أو قوله وقول غيره بِقَصدِ معرفةِ الأفضل إلا نوعاً من رفضِ التسليم له ولِما جاء في حقِّه في كتاب الله ؛ لِعَدَم وجود نسبة بين ذاتهِ المعصومة وذاتِ غيره – القاصرةِ غيرِ المعصومةِ – للمُقارَنة . وهذه القداسة لذاته الشريفة اختصَّهُ الله بها ولا

(١) سورة الحشر : ٧ .

(٢) سورة الأنفال : ١٧ .

تكون من بعده لحاكم أو أمير ؛ لأنه هو الذي جاء ﴿لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[1] وليس غيره .

وحذّر الله من مُخالفة النبي صلى الله وبارك عليه وآله ومُنازعته لمن أراد أن يتَّصف بالإيمان . فقال تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2] ، وقال أيضاً : ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾[3] ، ولم يأمره بالتسلّط عليهم . فلم تكن طاعةُ الناس والتسليم للنبي صلى الله وبارك عليه وآله ناتجةً عن تسلّطٍ دنيوي من عنده بالإمارة ، أو عن حُكم مُستمدٍّ من موالين يسعون للسلطة والوزارة . أما ما صَدَر عنه صلى الله وبارك عليه وآله من حُكم قضائي بين الناس ، فكان – كما ذكرنا – نتيجةً لتحاكم الناس إليه برَغبَتِهم ، فهم الذين يُحَكِّمونه ويلجأون إليه لإيمانهم به عن رضا وطواعية وحب ، لا خوفاً منه لأن الخوف في الإسلام لا ينبغي أن يكون إلا من الله . والخوفُ من الله هو الدّافع للوازع الإنساني الذي يَمنَع من السلوك الخاطئ ، وهو المُنتِج للقيَم الإنسانية لَمن تَدَنَّت أخلاقُهُم ، فيَستقيم سُلوكُهم دون تَدَخُّلٍ من شَخصٍ آخر يَفرضه عليهم . ولكن أصحاب

---

(١) سورة الطلاق : ١١ .

(٢) سورة النور : ٦٣ .

(٣) سورة الحج : ٦٧ .

الأخلاق العالية فخوفهم من الله هو خوفُ المُحب الذي يخشى الإبعاد عن القُرب وعدم القَبول . ولكن الحُكَّام يخيفون الناس بتسلطهم عليهم بالقَهرِ والعِقاب . ولم يأت حاكمٌ على الناسِ بِصِفَةٍ دينية إلا بِفَرضِ سَلطته عليهم ، لا بإجماعهم على محبّته! لذلك لا يكون الحاكم ممثِّلاً للدين بل هو سلطان في دولة . ولم يكُن حكم النبي صلى الله وبارك عليه وآله – أي قضاؤه – بين الناس بتجسُّسٍ منه وترصُّدٍ لأخطائهم وإحضارهم بالقوة ليحكم فيهم كما هي حال الدولة . فكيف يدَّعي حاكمٌ أنه يحكم بالإسلام وهو يقهر الناس ويحجر على خصومِه ويُجبرهم على ما هو عليه مِن اعتقادٍ ورأي؟

كان نبيّ الرحمة صلى الله وبارك عليه وآله يلتمس كل السُّبل لإيجاد شُبهةٍ يدرأ بها الحدّ الشرعي ، وكان يترك من يُقِرُّ بِذَنبه وشأنه ، ما لَم يتعلَّق الأمر بحقٍّ الغير ، ولا يُلاحقه لإيقاع العِقاب عليه إلا إذا حَضَرَ بنفسه لطلب العقاب ليُطَهِّر نفسه . وكان يقول : «ادرءوا الحدود بالشُبهة»[1] ، وكان يقول : «تعافوا الحدود بينكم فما بلغني من حدٍ فقد وجب»[2] . فكان حُكمه صلى الله وبارك عليه وآله قضائياً ناتجاً من احتكام الناس إليه ، لا من تسلُّطه عليهم ليحاكمهم . بل كان يحثُّهم على عدم اللجوء إليه للمحاكمة على عكس ما يفعل الحكام

---

(١) فيض القدير .

(٢) المستدرك على الصحيحين .

الذين يسعون بأنفسهم لإحضار الناس لمحاكمتهم ولو بالتجسس عليهم ، وقال صلى الله وبارك عليه وآله : «من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[1] وقال صلى الله وبارك عليه وآله : «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيى موؤودة في قبرها»[2] . وهذا هو الدين الذي لا يوجد فيه قصد التسلُّط على الناس وتصيُّد أخطائهم ، الأمر الذي لا تعرفه دولةٌ ولا حكومة حيث لا يُقِرّون مبدأ الستر في الدولة أصلاً ؛ بل يشرعون التجسُّس والترصُّد وتتبُّع أخطاءِ الناس والقبض عليهم وإحضارهم للمحاكمة قسراً رغم أنفهم ، والحجر على المُعارِضين . وليس هذا من الدين على الإطلاق .

والتسلط الدنيوي هو ما حصل بعده صلى الله وبارك عليه وآله ، حيث احتاج الحاكم لمن حوله ليُجبِروا الناس ويُكرهوهم على مبايعتِه وطاعتِه بالسيف ، ولو كانوا أعلم الناس بالدين منه . ولا أدري لماذا كانت محاولة إجبار عليّ عليه السلام للمُبايعة؟ هل كان هناك تخوُّف من أنه كان سيُضِل الناس ويُخرِّب الدين إن لم يُبايع؟ وهل كان متَّهماً بسلوك يُرى فيه عدم الحرص على دين الله؟ لا يوجد سببٌ غير فَرضِ السُّلطانِ عليه وعلى مَن معه!

وأحياناً يقوم الحاكم بنفسه بذُلِّ الناس وإجبارهم وقهرهم

---

(١) صحيح البخاري .

(٢) صحيح ابن حبان .

على مراده . وذكروا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتجسَّس على الناس بنفسه ويتسوَّر عليهم[1] لأنّ ذلك كان من لوازم السلطة والسيطرة والحُكم . وهناك ما يدعو للشكِّ في هذه الرواية ؛ لأنه سلوكٌ يتعارض مع القرآن وحديث النبي صلى الله وبارك عليه وآله ؛ فقد تكون القصّة المنسوبة لعمر رضي الله عنه قُصِد منها وجود مبرِّر للحُكّام للتجسُّس وإلصاق ذلك بالإسلام . ولا يقول مسلم بأن التجسُّس من الإسلام ، وإلا كَفَر بما أُنزل على محمد صلى الله وبارك عليه وآله ؛ فالله سبحانه يقول : ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾[2] . يُصِرُّ كثيرٌ من الناس على صحة هذه الرواية ويحسبونها من مناقب عمر رضي الله عنه ؛ إذ ينسبون إليه أنّ الذين كانوا يشربون الخمر – قالوا له إن الله يقول : ﴿ . . لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾[3] ، وأنت لَم تفعل ؛ والله سبحانه يقول : ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[4] ، وأنت لَم تفعل ، بل تسوَّرت ؛ والله يقول ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾[5] وأنت تجسَّست . فقالوا إن عمر

---

(١) كما قيل عنه مع الذين كانوا يشربون الخمر في دارهم – شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

(٢) سورة الحجرات : ١٢ .

(٣) سورة النور : ٢٧ .

(٤) سورة البقرة : ١٨٩ .

(٥) سورة الحجرات : ١٢ .

رجع وتَرَكَهم حينما واجهوه بهذه الحُجَّة ، يُدَلِّلون بذلك على عدل عمر . ولا يدرون أنهم أساءوا إليه بِذلك ؛ إذ كيف يكون عادلاً ويتركهم وقد رأى بعينيه ما يوجِب حدّاً مِن حدود الله؟ فهل تَركُه لهم يُكَفِّر له أخطاءه الثلاثة ، أم أنه يُضافُ إليها ليُصبح الرابع؟

كما ينسبون إليه – ويحسبونها مِن عَدلِه ومِن مناقبه – أنه أمر بالنفي على نَصر بن حجّاج – أحَد شباب المدينة المنوّرة – وذلك لأن الله سبحانه خَلَقه جميلاً – وهذه جريمته – وعلَّل أمر نفيه له بِخوفه على نساء المدينة أن تفتتن به!! ولا يمكن أن يكون ذلك سبباً مُقنعاً لنفيه لأن البلاد التي يُنفى لها لن تكون خالية من النساء!! ولا يُمكن أن يكون الجمال الذي خَلَقَه الله به جريمةً يُنفى بسببها مِن أمِّه وأبيه وإخوته ومِن بلده!! وذَكَروا مِن مناقبه أنه رأى رجُلاً يمشي ببطء فضربه بالدرة وقال له : «لا تمت علينا ديننا أمـاتك الله»[1] ، ولا أرى أن هذه تصب في عدله وميزان حسناته إطلاقاً ، فقد يكون الرجل مريضاً! وإن لم يكن مريضاً فإن مِن حق المرء كما قال تعالى : ﴿ . . وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[2] ؛ أليس هناك حق لمن شاء أن يمشي بطيئاً؟ لقد أساءوا كثيراً إلى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بما نسبوه إليه بذكاء وقالوا إنها مِن مناقبه ، وقالوا في بعض الروايات إنه حينما أسلَم قال له النبي

---

(١) الكامل في اللغة والأدب .

(٢) سورة الكهف : ٢٩ .

صلى الله وبارك عليه وآله : «استره» فقال عمر : «والذي بعثك بالحق لأعلننه كما أعلنت الشرك»[١] ليُدلِّلوا على شجاعته ولا يعلمون أنهم بذلك نسبوا إليه عصيان النبي في أول لحظة من إسلامه!! فالله يقول : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢] . ويقول النبي صلى الله وبارك عليه وآله : «إنك إن تتبَّعت عورات الناس أفسدتهم»[٣] ، ويحثُّ على العكس من ذلك إذ يقول : «من ستر أخاه المسلم ستره الله في الدنيا والآخرة»[٤] . فالإسلام ليس دولة ؛ لذا فما تحتاجه الدولة لقيامها وبقائها يجب ألا يُنسَب إلى الإسلام بأي حال . فأساس الإسلام هو كما قال تعالى : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[٥] ، وهذا يعني عدم التماس دعم للدعوة من خارجها ؛ لأنها حق والحق يقوم بنفسه لكماله ، والذي يحتاج إلى غيره ناقص . فلا يُطلَب للإسلام دعمٌ من خارج الدعوة نفسها ؛ فلا يقولن أحد بعد هذا إن الرسول صلى الله وبارك عليه وآله احتاج إلى بعض الرجال لدعم الدعوة ؛ لأن ذلك مخالف للنص القرآني الذي تكفل

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة .

(٢) سورة النور : ٦٣ .

(٣) صحيح ابن حبان .

(٤) صحيح ابن حبان .

(٥) سورة النور : ٥٤ .

الله فيه بأمر الدعوة كلها ، ولكي لا يظن أحد ذلك الظن بالنبي صلى الله وبارك عليه وآله قال تعالى : ﴿قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾[1] ، وتولى سبحانه قتل المُشركين ولَم ينسبه لأحد غيره ، قال تعالى : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ﴾[2] ، فلا يبقى بعد ذلك ما يستدعي حاجة لأحد ليُعز به الإسلام ﴿ . . وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ﴾[3] ، ولا تحتاج الدعوة إلى سلطان ليقيمها ، بل قد يحتاجها السلطان لنفسه يتقوّى بها : لأنها حق والحق منصور لا محالة .

فالذي يرى قيام الدولة ليقوم بها الإسلام فقد عكس الأمر وخالف النبي صلى الله وبارك عليه وآله في نشر الدين وتبليغه بمظهره الرحيم وقلبه الحليم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[4] لأنه رحمة الله للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[5] . كما أن ذلك يبلُغ حدّ الشكّ في قُدرة الله على القيام بِنَشر الدعوة ونُصرَتها ، بمُجرّد البلاغ من النبي صلى الله وبارك عليه وآله ، لرؤيتهم عدم إمكانية قيام الدعوة

---

(١) سورة الحجرات : ١٧ .

(٢) سورة الأنفال : ١٧ .

(٣) سورة آل عمران : ١٢٦ .

(٤) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٥) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

بالبلاغ فقط ، وحاجتها للدعم المادي!!

والحاكم في الدولة قد يُخالف شرائع الإسلام ؛ إذ لا عصمة لحاكم ، ولا يُمكن مطالبته بالعصمة مِن قِبَل الرعية ، وعليه لا يكون الحاكم رأس الإسلام . فلا يُقال إن ما يصدر منه سُنّة تُتَّبع! وبالتالي فالدولة ليست هي الإسلام ، والإسلام لا تحصره دولةٌ ولا حدودٌ جُغرافيّة ، ولا يُمَثِّله رأس الدولة ، جَرّاءَ مُبايعةِ الناسِ له! ففي الإسلام كلّ فردٍ اختار الإسلام ديناً فهو مُقيَّدٌ محكومٌ بما أنزَل الله من الشرائع التي هي حكم الله ، بل هو الذي قيَّد نَفسَه بها ، لا يتسلَّط أحدٌ عليه بها . وهي الحاكمة على الجميع ، والرقيب على الالتزام بها هو الله وحده ، وحقُّ العقابِ عليها راجعٌ إليه سبحانه في الآخرة – إن شاءَ عَفا وإن شاءَ عاقَبَ – ولا قُدسيّة لأحدٍ فوقها – ملكاً كان أو أميراً – ولا يَحِقُّ لأحدٍ سَنُّ قوانين أو تشريعاتٍ تُخالفها تنتقص من حرِّيات الناس وحقوقهم ، ولا فَرقٍ بين رئيس ومَرؤوس ، بل لا يوجد رئيس ومرؤوس في الدين (أي الإسلام) ، إنما هناك مَرجعية يَعلمُه الناس بالضرورة لِتَفوُّقه على الآخرين بالعلم وحُسن المعاملة وحيازة كل القِيَم الاجتماعية وسُموِّ الأخلاق . فيولونه محبّتهم وثقتهم وطاعتهم ، فيُحكِّمونه في أمورهم ليقضي بينهم بما أنزل الله مِن شَرعِه ، أي بحكم الله ، فيصبح هو المرجعية للمجتمع ، ولكن بصورةٍ لا إكراه فيها ولا سيطرة . ولا يسعى هو للتميُّز عليهم على الرغم من تمييز الله له ، ولا يُكرههم على أمْرٍ ولا يُرعِبهم – قال صلى الله

وبارك عليه وآله «لا يحِلّ لمسلم أن يروع مسلماً»[1] وقال : «من نظر إلى أخيه نظرةً تُخيفه أخافه الله يوم القيامة»[2] . فيكون هذا ديدنه وله في رسول الله أسوة حسنة .

(١) سنن أبي داؤود .

(٢) شعب الإيمان .

مرجعية دينية لا حكم سياسي !

ليست الإمارة والحكم السياسي هو ما شرعه رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله من الدين ولا أشار إليه في سيرته ، ولا المُرسَلون من قبله ؛ ولكن انحرف بعضهم بالدين إلى غير مقاصده ، ووجَّهَه إلى إنشاء الدولة الدنيوية والحكم السياسي ، على الرغم من ما أشار به النبي صلى الله وبارك عليه وآله في حديثه «تَرَكتُ فيكم ما إن أخَذتُم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[1] فما كان الأمر يحتاج إلى تغييرٍ في أمر سير الحياة . فما أنْزَلَ اللهُ من التشريعات – التي هي حكم الله – موجودٌ ومحفوظ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2] ، والالتزامُ به – ممن أراد – باقٍ دون إكراه . فالناس قد دخلوا في الإسلام برغبتهم وعن طواعية ، فَوَلاؤهم لله ولما أنْزَل من التشريعات ، ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[3] ولا

(١) سنن الترمذي .

(٢) سورة الحجر : ٩ .

(٣) سورة آل عمران : ٩٧ .

يُكرَه ؛ قال تعالى : ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾[1] . فالذين آمنوا بالله ورسوله وأحبُّوا الله ورسوله لا يتغيَّر مسارُهم في الحياة من الالتزام بما أنزَل الله لأنَّ تلك إرادتهم ورَغبَتهم ، وإذا رابَهم أمرٌ بحثوا عن المرجعية لِفَكِّ الارتياب ؛ فيجدونه كما قال النبي صلى الله وبارك عليه وآله – عند العِترة الطاهرة حيث كتاب الله ومَعرفته «كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض»[2] .

فلا يكون المرجعية حاكماً ولا أميراً ولا سُلطاناً ، كما يظُن بعض المسلمين الذين يعتقدون أنّ ما جرى من بيعة بعد النبي من أجْل الحُكم كان يجب أن تكون لسيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام لِقُربِه من النبي ، ولِعلمه ، ولِما أشار به عليه النبي صلى الله وبارك عليه وآله في قوله : «من كنت مولاه فعلي مولاه»[3] . فليست الإمارة والحُكم هو ما أشار به النبي لعلي عليه السلام ؛ إذ ما كان ينبغي أن تكون هناك منهم بيعةٌ لحُكم وسلطة وسيطرة أصلاً لأجل الدين – بإكراه أو بغيره – وما كان علي عليه السلام يتطلَّع إليها لِعَدَم ورودها في منهج الإسلام ، فذلك أمر قد نفاهُ الله عن النبي صلى الله وبارك عليه وآله

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٦ .

(٢) مسند أحمد .

(٣) سنن الترمذي .

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[1] ، فتنتَفي بالضرورة عمن جَعَل النبي موالاته موالاته ، ومَن كان منه بمنزلة هارون من موسى . فالحديث لا يعني أن يقوم وصيُّه بإنشاء دولة تُكره الناس على الدين . وقد وَرَدَ عن علي عليه السلام أنه قال : «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسةً في سلطان ولا التماس شيءٍ من فضول الحُطام ، ولكن لِنردَّ المَعالِم مِن دينِك»[2] ، ولم يُسَمِّ عليه السلام مَن يخلُفُه ، تأكيداً لمعنى أن الولاية ليس المقصود بها السلطة السياسية والإمارة . بل هي المرجعية التي يحتاجها أولئك الذين ارتضوا الإسلام منهجاً للحياة وامتلأَت قلوبهم بمحبة رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله . فأخطأَ من ظنَّ أنّ ما كان من بيعة ، أُكره عليها الناس ، كان يجب أن تكون لعلي عليه السلام ؛ لأنّه لا مكان في الإسلام لبيعةٍ يُكرَه الناسُ عليها للتسلط بها على رقابهم .

ولكن التفكير في السُلطة والإمارة كان مُسيطراً على القوم «نحن الأُمراء وأنتم الوزراء»[3] فالحُكم عندهم أولاً كان هو الأهم ، فاستَبَقوا إليه رغبةً في السلطة والتحكُّم في عباد الله!! ولا يدَّعي أحد أن ذلك قُصِد به حفظ الدين ، فالله سبحانه قد تكفَّل بحفظه ودعمه ورعايته ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

(١) سورة الغاشية : ٢٢ .

(٢) نهج البلاغة .

(٣) صحيح البخاري .

لَحَافِظُونَ﴾[1]) ولم يجعل لذلك وكيلاً عنه من خلقه ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[2] . فما كان من القوم إذن هو تسابقٌ للسلطة وتقاسمها . . «منّا أمير ومنكم أمير»[3] ؛ فكانت الفلتة كما سمّاها عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4] ، بينما لم يَزَل أعظَمُ وأحبُّ خلق الله مُسَجّىً لم يُوارى بعد! وليس على وجه الأرض أفضل منه ، مهما كان شأنه ودوره! ولكنهم انشغلوا عنه صلى الله وبارك عليه وآله . ولم يشهد أبوبكر وعمر دفن النبي صلى الله وبارك عليه وآله[5] ولَم يُصَلِّيا عليه ، وكذلك عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذ وَرَد عنها «مَا عَلِمْنَا بِدَفْنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى سَمِعْنَا صَوْتَ الْمَسَاحِي مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ لَيْلَةَ الأَرْبِعَاءِ»[6] . فليس هناك شيءٌ أُغتُصِبَ من علي عليه السلام ، ومُحال أن يُغتصَب منه حقٌ اختصَّه اللهُ به ورسولُه دون غيره . فكلامُ النبي حقٌّ لأنه صلى الله وبارك عليه وآله حقّ ، لِقول الله تعالى ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٧ .

(٣) صحيح البخاري .

(٤) صحيح البخاري .

(٥) مصنف ابن أبي شيبة .

(٦) مسند أحمد .

وَشَـهِـدُواْ أَنَّ الـرَّسُـولَ حَقٌّ﴾[1] ولا يخـرج من الحقِّ إلا الحقّ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾[2] . فمَن كان النبي مولاه فعليٌ مولاه إلى قيام الساعة ، فولاية الرسول صلى الله وبارك عليه وآله لا تنتـهي برحـيله ، وكـذلك ولاية علي عليـه السـلام لا تنتـهي برحيله ، فلا يمكن حصرها على حياته أو على سلطة دنيوية . ولا تعني ولاية علي عليه السلام السُلطة السياسية والحُكم والإمارة ، فذلك شأنٌ دنيوي ينتهي بموت صاحبه ، وليس من الدين في شيء ، ولا يوجد حاكم ولا مُتَسلِّط في الإسلام على الناس . فلا ينبغي أن يُقال لمن يقهر الناس ويتسلط عليهم بأنه صار أميراً للمؤمنين لمجرد أنه أصبح حاكماً ؛ لأنّ ذلك لا يزيده إيماناً فوق الذين آمنوا وإن ظَنَّ أنه أكمل الناس إيماناً . فهو فقط أمـير بلد أو دولة محـددة ، وليس على المؤمنين في الوجـود ، والذي يظنّ أنه أكمل الناس ايماناً فقد أمن مكر الله ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3] .

والإيمان محله القلب ولا يَعلَمه إلا الله سبحانه . فما الإسلام إلا دين – أي شرائع أنزلها الله ليتحاكم إليها من يرتضيها – لا فَرقَ فيه بين غني وفقير وأسوَد وأبيض ، وقمّة الدين صالح الأخلاق التي يزيِّنها الحبيب المصطفى صلى الله

---

(١) سورة آل عمران : ٨٦ .

(٢) سورة النجم : ٣ .

(٣) سورة الأعراف : ٩٩ .

وبارك عليه وآله . والعقل يُحَتِّم أن يكون دين الله مُرتضىً بل محبوباً لا مَكروهاً . فالأمر الذي يُكرَه عليه الناس مكروه عندهم . ولا يحِقُّ لأحدٍ أن يضع دين الله في هذه الصفة . والرسول صلى الله وبارك عليه وآله يقول : «حَبِّبوا الناس إلى الله يُحبِبكم الله»[1] . فلا تَجعلوا الدين مكروهاً يُجبَر الناسُ عليه . . «يَسِّروا ولا تُعَسِّروا وبشِّروا ولا تُنَفِّروا»[2] . فأخْذُ بيعةٍ من الناس بإكراه بقَصدِ المُحافظةِ على الدين لا مُبَرِّر له ولا يوجد له سَنَدٌ من كتاب الله ولا من صاحب الرسالة صلى الله وبارك عليه وآله . والإكراهُ أمرٌ مُنَفِّرٌ في المُكرِه والمُكرَه عليه ، فطَلَبُ الإمارةِ لإكراه الناس على الدين مخالَفَةٌ للدين ، ومُنَفِّرٌ للذين يُفرَض عليهم ، لوجود السيطرة التي نفاها الله عمن يدعو إلى الإسلام ، ولا يليق ذلك بدين الله ونبي الرحمة صلى الله وبارك عليه وآله . فأينما وُجدَ الإكراه فقد فُقِدَ الدين كما قال تعالى : ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[3] . فلا يدَّعي أحَدٌ أنّه على سُنَّة النبي صلى الله وبارك عليه وآله وهو يُكره الناس على الدين بالشُرطة والعسس ويجبرهم على طاعته بالسيطرة والحكم الذي يفرضه عليهم مُنتَزِعاً بذلك حريتهم بمبايَعةٍ يُجبِرهم عليها .

---

(١) الأولياء .

(٢) صحيح البخاري .

(٣) سورة البقرة : ٢٥٦ .

إطاعة أولي الأمر !

لم يُنَصِّب الله سبحانه رُسُلَه حُكّاماً أو وُكَلاء عنه ليعاقبوا الناس الذين لا يلتزمون بالتعامل بالشرائع المُنزَلة ، أو الذين يرفضونها ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[1] ؛ لأنهم ليسوا أصحاب سلطان وما عليهم إلا البلاغ ؛ والتزام الناس بالشرائع وتنفيذها إنما يُحدِّد ويبيِّن صِفَتهم التي وصفهم بها الله ، لا أكثر ؛ فإمّا مؤمنون ملتزمون بالشرائع وإما كفّارٌ لا يؤمنون بها أصلاً ، وهؤلاء يُدعَون إليها بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا إكراه عليهم ولا سيطرة . والمؤمنون المُلتَزِمون يجب ألا يروا في أنفُسِهم سيادةً على الآخرين بذلك ويظنوا أن ذلك الالتزام يعطيهم حقَّ التسلُّط لأنّهم الفرقة الناجية ، فالعِبرة بالخواتيم ، كما أنّ ذلك يجعلهم من الهالكين الآمنين مِن مكر الله ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ

---

(١) سورة يونس : ١٠٨ .

الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1] . فإنّ الناقد بَصير والميزان دقيق ، فالويل لمن لا يتذكَّر ويتَدَبَّر ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾[2] . فالإيمان يُكسِب المرء الخوف من الله أن يُبعده من رحمته ، والرجاء فيه ليدخله فيها . فالخوف والرجاء هُما اللذان يسوقان العبد إلى الله ، فلا يغفَل عن مُحاسبة نفسه ، فكيف يتصدى لمحاسبة الآخرين وتصنيفهم وعقابهم وهو يجهل مصيره في الآخرة ، وإن كان مجاهداً في سبيل الله؟ فقد قال رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله : «ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته»[3]؟!

وأمْر الناس الذين يرفضون التعامل بما أنزَل الله من الشرائع – التي هي حكم الله – موكول إلى الله الحَكَم العَدل للحساب في الآخرة ، كُفاراً كانوا أو مُشركين ، فلا يتسلَّط أحد على حرياتهم بدعوى العلم بالدين ، فيَلبس صفةً إلهية قهرية ، ويُعَجِّل لهم الحساب والعقاب في هذه الدنيا بالوكالة عن الله سبحانه فيسومهم سوء العذاب! وهو أمر لم يُعطه الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[4] . والتعامل

---

(١) سورة الأعراف : ٩٩ .

(٢) سورة القارعة : ٨-٩ .

(٣) مسند أحمد .

(٤) سورة الأنعام : ١٠٧ .

معهم يجب أن يكون تأسِّياً برسول الله صلى الله وبارك عليه وآله . ولننظر كيف كان تعامله مع الكفار والمشركين من العرب وغيرهم ، مما دعاهم لقبول الدعوة . فإنّ في التعامل الرحيم الودود ، جذبٌ للقلوب وميلٌ لصاحبِ ذلك التعامل . فهكذا يجب التعامل مع الإنسان من حيثُ إنسانيتُه . فالصِّفات ، كالكُفرِ والشِّركِ أمورٌ عارضة قد تتغيَّر إذا وُجِدَ الطبيب المُداوي صاحبَ الأخلاق العالية . فالإنسانية هي الأصل الذي كرَّمَه الله تعالى ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ . . .﴾[1] ، فالآخر «أخوك في الدين أو صنوك في الخلق» كما قال الإمام علي عليه السلام ؛ فلا مجال للكراهية والبغضاء .

أما قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2] ، فالأمر الإلهي موجّه للذين آمنوا بطاعة الله والرسول وأولي الأمر ، ولا يوجد أمر إلهي للرسول وأولي الأمر لمعاقبة من لا يمتثل لأمرهم . ولكن الناس أخطأوا فَهمَ المقصود في الأمر كما فَعلوا في تفسير الحديث «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ»[3] ، فمَنعوا القيام لأهل الفضل ، بينما الحديث لا يُخاطِب الذين يقومون لِصاحِب الفَضل ، بل مطلوبٌ منه هو ألا يُحِب ذلك

---

(١) سورة الإسراء : ٧٠ .

(٢) سورة النساء : ٥٩ .

(٣) سنن الترمذي .

منهم . فطاعة الله سبحانه هي اتِّباع ما أَنزلَه على رُسُلِه صلوات الله عليهم . من يَرفُض ذلك من الناس فأمرُه إلى الله في الآخرة ليعاقبه أو ليعفو عنه – إذ لا يجب على الله فعلُ شيءٍ أو تركُه ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1] – وليس لأحد حق التدخل في حريته .

وطاعة الرسول صلى الله وبارك عليه وآله هي الأدب معه والالتزام بما يأمُر به من تبيان لما أنزَله الله سبحانه ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[2] . ومَن يَرفُض الالتزام بما جاء به الرسول صلى الله وبارك عليه وآله ، فأمرُه كذلك إلى الله في الآخرة ، وليس على الرسول محاسبته ومعاقبته ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[3] ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[4] ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[5] . ولم يُعطِ الله سبحانه رسوله صلى الله وبارك عليه وآله الحق في معاقبة مَن يعصيه ويرفض طاعته ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٣ .

(٢) سورة النحل : ٤٤ .

(٣)سورة الشورى : ٤٨ .

(٤) سورة النحل : ٨٢ .

(٥) سورة المائدة : ٩٢ .

تَعْمَلُونَ﴾[1] ، فحدُّ العقاب في عصيان الرسول صلى الله وبارك عليه وآله هو أن يتبرأ الرسول صلى الله وبارك عليه وآله من عمل الذي يعصيه ، ولا يوجب عليه إنزال عقوبة دنيوية كما بيَّنت الآية الشريفة . ولكن الله شَرَطَ الهدايةَ باتِّباع رسوله وطاعته ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[2] وجَعَلَ جزاءَ تلك الطاعة الثوابَ الجزيل والمَعيَّةَ مع الأنبياء ﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً﴾[3] . وما كان النبي صلى الله وبارك عليه وآله مُتَسلِّطاً يُعاقِب مَن يَعصي أوامره ، ولا توجد حالة في سيرته صلى الله وبارك عليه وآله عاقَب فيها أحداً رَفْضَ الانصياع لأمره .

فلا يحقُّ لحاكمٍ أو أميرٍ أن يُلبِسَ حُكمَه أو إمارتَه ثوبَ الدين ليحاسب الناسَ ويعاقبهم باسم الدين ويقال عنه إنّه من أولي الأمر . فإن مَن يُلبِسَ حُكمَه أو إمارتَه ثوبَ الدين عليه أن يَعلم أنّ ذلك يوجب عليه الاتصاف بما ينبغي على الداعية ، فيُشتَرَط فيه صالحُ الأخلاق ، فيكظم غيظه ، ويعفو عمن

---

(١) سورة الشعراء : ٢١٦ .

(٢) سورة النور : ٥٤ .

(٣) سورة النساء : ٦٩ .

ظَلَمَه ، ويَصِلُ مَن قَطَعَه ، ويُعطي مَن حَرَمَه ، ويُحسِن إلى مَن أساء إليه . وعليه ألا يتعدَّى حدودَ ما أنزَلَ اللهُ على رسولِه من الشرائع ، ولا تتعدَّى دعوتُه لإقامةِ الدينِ التبليغَ فقط للمشركين والكفار – وليس للمسلمين – دون إكراهٍ لأحد منهم على ذلك . وليس له الحقُّ في معاقبةِ أحدٍ إذا عصاه ، ولا يزيدُ على التذكيرِ بالتبشيرِ والإنذارِ للذين آمنوا ، ولا يتتبع الناسَ في سلوكِهم لغَرَضِ بقاءِ سلطتِه ، ولا يجعل لنفسه قدسيةً تستوجِبُ طاعةَ الناسِ له بحُكم إمارتِه . ولا يظُن أن حُكمَه أو إمارته تزيده علماً وتجعله المسؤولَ عن المُحافظة على الدين في المجتمع ، او أنّه صار أعلم الناس بالدين وأكثرهم إيماناً وتدينا ، فيُصدِر من التشريعات ما يُكرِه به الناس ويُجبِرهم على مُرادِه ، ويُشعرهم بأفضليته الدينية عليهم ، فهو لا يعلم عاقبة أمره ، ولا يُثابُ على إجبار الناس على الدين ؛ لأنَّ ذلك ليس من الدين في شيء . فليس في رفضِ الطاعةِ فيما يجبُ لله سبحانه ولرسوله الأعظَم ما يوجِب معاقبة دنيوية من الرسول صلى الله وبارك عليه وآله ، فكيف يكون لأولي الأمر حقٌّ في التسلُّط بِوَجهٍ ديني ، وإجبار الناس على مُرادهم ومُعاقبتهم في مخالفتهم؟

إنّ الأمر الإلهي لا يعطي أولي الأمر حق التسلط على الخلق بوَجهٍ ديني ، فلَم يوجِّه الله سبحانه أمراً إليهم ليعاقبوا من يخالفهم ، بل أمرُه تعالى موجَّه إلى عباده الذين آمنوا ليطيعوهم ، فإن لم يفعلوا فحسابهم على الله في الآخرة – إن

شاء عاقب ، وإن شاء عفا – وليس لأولي الأمر حقٌ أكثر مما للرسول صلى الله وبارك عليه وآله ؛ الذي لم يُعاقِب من عصاه ، ولم يأمره الله بمعاقبة من يعصيه . فالله سبحانه وتعالى بيَّن لرسوله صلى الله وبارك عليه وآله حدود الرسالة . . قال تعالى : ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[1] ، ليكون المُحاسِب والمُعاقِب للمخالفين والرافضين للدين هو الله سبحانه وتعالى في الآخرة وإن شاءَ عفا عنهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾[2] .

فطاعة أولي الأمر المنصوص عليها لا تعطيهم ، مِن وَجهٍ ديني ، حق التسلط على الناس وعقابهم ، الأمر الذي لم يعطه الله لرسوله الكريم . فعقاب الناس على العصيان ليس إلا لرَبِّ الناس في أمور الدين كلها . فإن كان هناك عقاب على مخالفة أولي الأمر من ناحية دينية فذلك عند الله في الآخرة ، وكذلك من عصى الله ورسوله فعقابه عند الله في الآخرة ، فلا سلطة دينية لأحد ليعاقب بها الناس في عصيانهم له .

فلا يوجد أمرٌ للنبي بإنشاءِ دولةٍ أو حكومةٍ للقيام بالوكالة عن الله في محاسبة الناس وعقابهم بسبب الدين ؛ لأنّ الدولة أو الحكومة لا تكُفُّ عن ملاحقةِ الناس وتتبُّع أخطائهم والتجسُّسِ عليهم وسَلْبِ حُرِّيّاتهم التي أعطاهاَ لهم الحق

---

(١) سورة الرعد : ٤٠ .

(٢) سورة الرعد : ٦ .

سبحانه ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[١] ، وقال سبحانه : ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٢] ولا يوجد أمرٌ من النبي صلى الله وبارك عليه وآله لخَلَف بإنشاء دولة لرعاية الدين من بعده . بل بيَّن عدم علاقة الدولة بالدين في قوله صلى الله وبارك عليه وآله : «إنّ الكتاب والسلطان سيفترقان»[٣] . فالسلطان هو الأمر الذي يجمع اللهُ به الخلقَ لطاعة أحدٍ من عباده . وهو يكون لرُسُل الله بتأييدٍ إلهي ، ويُنزِّله الله لهم مع الكتاب ، دون سعيٍ منهم ، كما كان للنبي صلى الله وبارك عليه وآله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾[٤] ، وليس في هذا السلطان سيطرةٌ على العباد ، لانقيادِ الناسِ وطاعتِهم برغبَتِهم . ولكن قد يُفرَض السلطانُ – الإمارة– عن طريقِ تَسَلُّطٍ وإجبار ، بِسَعي من العباد ، لعدم وجود التأييد الإلهي الذي يكونُ لرُسُل الله ، وهذا مُفارقٌ للكتاب ﴿ . . . وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٥] ، وواضحٌ من هذه الآية أن الناسَ قد يتَّخذون سُلطاناً من عِندِهم مُغايِراً لِما أنزَل اللهُ من

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٣) مجمع الزوائد .

(٤) سورة النساء : ٦٤ .

(٥) سورة الأعراف : ٣٣ .

السُّلطان ، فـيُـضطرون لِدَعـمِـه بالشـرطة والعَـسَس ، ويُصـدرون تشريعـاتٍ ويُجبرون النـاس عليها ، واتبـاع تشريعـاتهم تلك هي عـبـادة النـاس لهـم «أحَلُّوا لـهـم الحـرام وحـرمـوا عليـهـم الحـلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»[1] ، فاختَلَقوا سُلطاناً لَم يأذَن به الله ، قـال تعـالى : ﴿ . . . وَتَخْلُقُـونَ إِفْكاً﴾[2] . وهذا مـا حدث بعد النبي صلى الله وبارك عليه وآله ، وهو إنشاء الدولة والإمـارة باسم الدين . ولو كـان إنشـاء دولةٍ ضـرورة في حـفظ الدين لَمَا تَرَكَ الرسـولُ صلى الله وبارك عليـه وآله الناسَ دون أن يُعَـيِّن لهم رئيسـاً لذلك ، وليس هناك من هو أحرص منه على المؤمنين ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾[3] ، وحفظ الدين قد تكفَّل به الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير .

(٢) سورة العنكبوت : ١٧ .

(٣) سورة التوبة : ١٢٨ .

(٤) سورة الحجر : ٩ .